نجيب محفوظ



قلب الليل



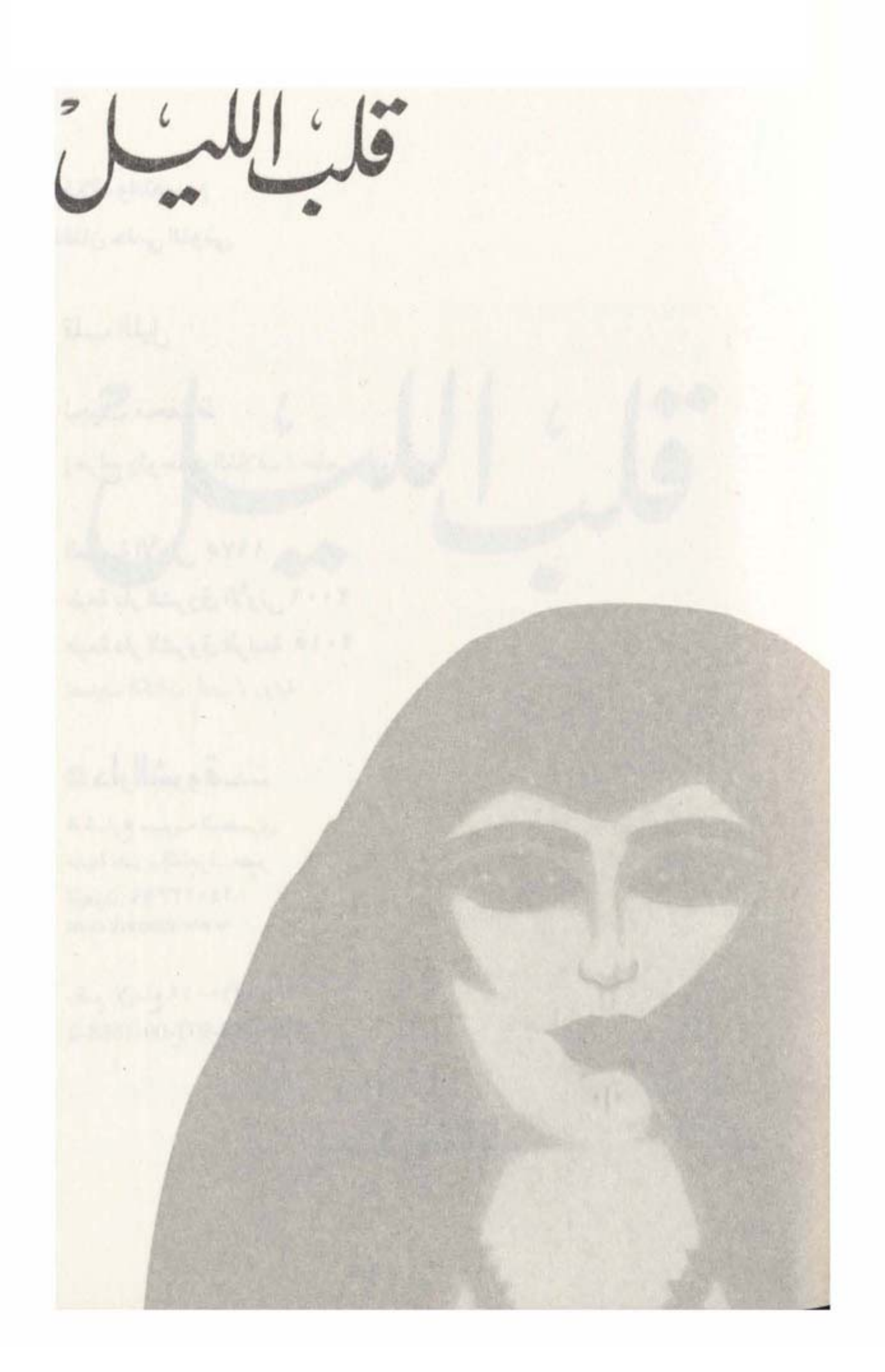
21.3.2017



نجيب محفوظ

قلب الليل

دار الشروق



Twitter: @ketab_n

الغلاف والتصميم
للفنان حلمى التونى

قلب الليل

نجيب محفوظ

إخراج ولوحات الغلاف : حلمي التوني

الطبعـة الأولى ١٩٧٥
طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٦
طبعة دار الشروق الرابعة ٢٠١٥
تصنيف الكتاب: أدب / رواية

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ٢٠٠٦/١٠٠١٩
ISBN 978-977-09-1588-2

١

قلت وأنا أتفحصه باهتمام ومودة:

ـ إنى أتذكرك جيدا.

انحنى قليلا فوق مكتبى وأحد بصره الغائم. وضح لى من القرب ضعف بصره، نظرته المتسولة، ومحاولته المرهقة لالتقاط المنظور، وقال بصوت خشن عالى النبرة يتجاهل قصر المسافة بين وجهينا وصغر حجم الحجرة الغارقة فى الهدوء:

ـ حقّا؟!.. لم تعد ذاكرتى أهلا للثقة، ثم إن بصرى ضعيف..

ـ ولكن أيام خان جعفر لا يمكن أن تنسى..

ـ مرحبا، إذن فأنت من أهل ذلك الحى!

قدمت نفسى داعيا إياه إلى الجلوس وأنا أقول:

ـ لم نكن من جيل واحد، ولكن ثمة أشياء لا تنسى.

فجلس وهو يقول:

ـ ولكنى أعتقد أننى تغيرت تغيرا كليا وأن الزمن وضع على وجهى قناعا قبيحا من صنعه هو لا من صنع والدى!

وقدم نفسه بفخار دون حاجة إلى ذلك قائلا:

ـ الراوى، جعفر الراوى، جعفر إبراهيم سيد الراوى..

لم تخف علىَّ أسباب اعتزازه بالاسم. وأكد ذلك التناقض الحاد بين منظره التعيس وبين لهجته المتعالية. قال:

ـ إنك تعود بى إلى ذكريات عزيزة، أحياء خان جعفر والحسين المقدسة، أيام الهناء والتجربة . .

ـ وكانت ثمة وقائع مثيرة وحكايات غريبة . .

فضحك عاليا . اهتز جسده الطويل النحيل حتى أشفقت على بدلته الرثة أن تتمزق، ورفع لى وجهه ذا الجلد المدبوغ والشعر النابت وهو يهرش شعر رأسه الأبيض المتلبد، وقال :

ـ نحن أهل، ومن حقى أن أستبشر خيرا لقضيتى العادلة!

فسألته مؤجلا الخصام :

ـ تشرب قهوة؟

فقال بلا أدنى تردد وبجراءة :

ـ لنبدأ بسندوتش فول ثم تجىء القهوة بعد ذلك . .

وراقبته وهو يأكل بنهم جائع حتى ساورنى الأسى، واستقرت رائحته فى أنفى خليطا من العرق والتبغ والتراب . ولما أكل وشرب اعتدل فى جلسته وقال :

ـ أشكرك، لا أريد أن أضيع وقتك أكثر من ذلك، لا شك فى أنك اطلعت على طلبى بحكم وظيفتك، فما رأيك؟

فقلت بأسف :

ـ لا فائدة، نظام الوقف لا يسمح بشىء من ذلك . .

ـ ولكن الحق واضح مثل الشمس .

ـ الوقف واضح أيضا . .

ـ كان القانون ضمن ثقافتى، ولكنى أعتقد أن كل شىء يتغير . .

ـ إلا الوقف فإنه حتى اليوم لم يتغير .

فهدر صوته الخشن صائحا :

ـ لن يضيع حقى أبدا، ولتعلم ذلك وزارة الأوقاف .

ولما وجد منى هدوءًا باسما تراجع إلى الهدوء وقال :

ـ دعنى أقابل المدير العام .

فقلت بلطف :

ـ المسألة واضحة جدًا، فوقف الراوى أكبر وقف خيرى فى الوزارة، ريعه موقوف على الحرمين الشريفين ومسجد الإمام الحسين بالإضافة إلى جمعيات خيرية ومدارس وتكايا وأسبلة . والوقف الخيرى لا يمكن أن يئول إلى شخص بحال من الأحوال . قاطعنى بحدة :

ـ ولكننى حفيد الراوى، ووريثه الوحيد، وإنى فى مسيس الحاجة إلى مليم على حين أن الإمام الحسين غنى بجنات النعيم .

ـ ولكنه الوقف!

ـ سأقيم دعوى .

ـ لا فائدة من ذلك .

ـ سأستشير محاميا شرعيا، ولكن تلزمنى استشارة مجانية؛ لأن النقود كائنات مجهولة فى عالمى . .

ـ لى أكثر من صديق بين المحامين الشرعيين، وممكن أن أدبر لقاء بينك وبين أحدهم، ولكن لا تضيع وقتك جريا وراء أمل لا يمكن أن يتحقق .

ـ إنك تعاملنى كطفل!

ـ معاذ الله، ولكننى أذكرك بحقيقة لا جدال فيها .

ـ ولكننى حفيد الراوى، وإثبات ذلك يسير علىّ .

ـ المهم أن تركة الراوى أصبحت وقفا خيريا . .

ـ وهل من العدل أن أترك أنا للتسول؟

ـ المتفق عليه فى الإدارة وهو المتبع فى مثل ظرفك أن تقدم طلبا بالتماس صرف إعانة شهرية من الخيرات بشرط أن تثبت نسبك . .

جعل يردد : إعانة شهرية؟ ! يا لهم من مجانين ظالمين!

و واصل قائلا :

ـ صاحب الوقف يلتمس إحسانا! هذا جنون . . وما مقدار الإعانة؟

صمت لحظات مترددا، ثم قلت :

ـ قد تصل إلى خمسة جنيهات . . وقد تزيد . .

قهقه ساخرا كاشفا عن أسنان مثرمة سوداء، ثم قال :

ـ صدقنى، سأكافح، لقد حملت حياة لا يقدم على حملها الجن، فلتكن معركة، لن أكف عن القتال حتى أنال حقى الكامل من تركة جدى اللعين!

فلم أتمالك من الابتسام وقلت :

ـ ليرحمه الله جزاء ما قدم للخير .

فضرب حافة مكتبى بقبضته المعروقة، وقال :

ـ لا خير فيمن ينسى حفيده الوحيد . .

ـ ولماذا نسيك؟

قبض على ذقنه دون أن يجيب . شعرت بأن الزوبعة ستنقشع عاجلا أو آجلا، وأن التماس الإعانة سيكتب . ما أكثر المتسولين عندنا من حفدة الباشوات والأمراء والملوك! ويقينى أنه لا يجحد أحد ذريته بلا سبب فماذا فعلت يا جعفر؟ !

ومد بصره الضعيف إلى لا شىء وراح يقول :

ـ وقف خيرى، حرمان من الميراث، هكذا فعله دائما مزيج من الخير والشر، ها هو ذا يمارس سلطته ميتا كما مارسها حيا، وهأنذا أكافح فى موته كما كافحت فى حياته . . وحتى الموت . .

٢

توثقت العلاقة بينى وبين جعفر الراوى. كان فى وحدته على استعداد حاد للالتصاق بمن يشجعه ولو بابتسامة، وكان يشجعنى على المغامرة شعورى بأنها عابرة سريعة الزوال، فشخصيته المضطربة لا توحى بالاستقرار والدوام، وإرضاؤها يسير هين. ثمة أشياء ظاهرة وباطنة جذبتنى إليه. هناك على سبيل المثال الذكريات القديمة وافتتانى ببيت الراوى وحكاياته، وما تردد يوما عن مغامرة جعفر وجنونه. وهناك أيضا ميلى إليه على رغم فظاعة منظره ورثائى له فى خاتمته التعيسة. وكان ذا قامة مديدة، ولولا البؤس ـ وربما الأمراض ـ لنضحت شيخوخته بروعة وجلال.

سألته بعد أن تناولنا عشاءنا من الكوارع فى شارع محمد على:

ـ كيف تعيش يا جعفر؟

ـ أتخبط فى الشوارع نهارا وحتى منتصف الليل . .

ـ وأين تسكن؟

ـ أبيت فى الخرابة . .

ـ الخرابة؟!

ـ هى ملكى بوضع اليد، وهى ما تبقى من بيت جدى القديم!

وكنت قد انقطعت عن الحى العتيق منذ عهد بعيد فلم أعرف أن البيت تحول إلى خرابة.

ـ أليس لك أهل؟

ـ لعلهم يملئون الأرض..

ابتسمت. فقال جادا:

ـ لى أبناء قضاة وأبناء مجرمون..

ـ أتعنى ما تقول؟

ـ على رغم ذلك فإنى وحيد..

ـ يا لها من طريقة فى الحديث!

ـ اسمع، رد إلىّ الوقف أعدك بأن ترانى محاطا بالأبناء والأحفاد، وإلا فستجدنى دائما وحيدا طريدا..

ـ أراك تحب الألغاز..

فضحك قائلا:

ـ إنى أحب اللقمة الحلوة والوقف، كما أحب لعن الواقفين..

ـ أليس لك مورد رزق من أى نوع فى شيخوختك؟

ـ لى أصدقاء قدماء، أعترض أحدهم فيمد يده بالسلام ويدس فى يدى ما يجود به، إننى أتمرغ فى التراب، ولكننى هابط فى الأصل من السماء.

قلت بأسى:

ـ حياة غير لائقة، اكتب الالتماس فورا..

ـ هى الحياة الإنسانية الأصيلة، جربها بشجاعة إن استطعت، اقتحم الأبواب بجرأة، لا تتمسكن فكل ما تحتاجه هو حق لك، هذه الدنيا ملك للإنسان، لكل إنسان، عليك أن تتخلى عن عاداتك السخيفة، هذا كل ما هنالك.

ـ ومع ذلك فإنك تتمنى أن تسترد تركة جدك؟

فقهقه قائلا :

ـ لا تحاسبني على التناقض، إني حزمة من المتناقضات، ولا تنس أنني عجوز، ولا تنس أنني أخوض معركة مع جدى منذ قديم .

ـ أود أن أعرف لماذ حرمك ميراثك؟

ـ هذه هي المعركة، لا تتعجل، لست بسيطا كما يتراءى لك، كثيرون ينخدعون فيّ، حتى الصبية يجرون ورائي وأنا أتخبط في الشوارع، ماذا يظنون؟ إني أحب الكلام، ولما كنت وحيدا فإني أكلم نفسي، ماذا يظنون؟ لقد تقدم بي العمر ولما تكف الأسئلة عن مطاردتي، صدقني فإنني شخص غير عادي، حتى في الجبل كنت غير عادي، ولا في القصر ولا في الخرابة، وعلى رغم التصعلك والتسول فإنني أقف أمام الحياة مرفوع الرأس متحديا، إذ إن الحياة لا تحترم إلا من يستهين بها . .

جعلت أتأمله باسما وهو يتحدى الوجود ببدلته المتهتكة وجلده المدبوغ، ثم تمتمت :

ـ عفارم عليك!

ـ وليس الإنسان وحده من تعاملت معه فلي صلات عريقة مع الجماد والجن والعفاريت فضلا عن عناصر الحضارة الجوهرية .

ثم غيّر نغمته فجأة وسألني :

ـ هل وقع اختيارك على محامي ثقة لنذهب إليه؟

فقلت متوسلا :

ـ انس بالله هذه القضية الوهمية يا جعفر .

ـ ألست جعفر إبراهيم حفيد سيد الراوي؟

ـ بلى . . ولكن لا توجد قضية على الإطلاق . .

فصاح :

ـ إذن سأشعل ثورة تقلب نظام الكون . .

ـ هذا أقرب إلى الإمكان من كسب القضية ، اكتب الالتماس ولا تبدد الوقت . .

فقال ضاحكا :

ـ إنكم فى الوزارة تعيشون من فتات أوقافنا ثم تمدون أيديكم إلينا بالإحسان . .

ـ اكتب الالتماس ولا تبدد الوقت . .

وغشانا الصمت دقائق ثم قال وكأنما يحادث نفسه :

ـ خمسة جنيهات !

ـ يجب أن تستأجر ولو حجرة فوق سطح . .

ـ كلا . . إن المبلغ يكفى للغذاء والسجاير والكساء . . أما المأوى فكيف أستأجر مسكنا وأنا أملك قصرا؟! لن أهجر الخرابة . .

ـ اكتب الالتماس فى أقرب فرصة وأرسله إلى الوزارة . .

ـ لا داعى للعجلة ، دعنى أفكر ، قد أكتب الالتماس وقد أستشير محاميا ، ولا يبعد أن أواصل الحياة بلا التماس ولا محام . . لا داعى للعجلة . .

ـ على أى حال فقد عرفت سبيلك . .

فقال بحدة :

ـ لا سبيل للتفاهم بيننا . . . فأنت ممن يخافون الحياة وأنا ممن يزدورنها ، وجميع ما ترتعد منه لمجرد تصوره قد عانيته . . جميع ما تسأل الله ألا يقع قد ذهبت إليه فوق قدمى . .

ـ عظيم جدًا يا جعفر . .

ـ هل يعجبك كلامى؟

ـ جداّ . .

ـ أتود أن تسمع المزيد منه؟

ـ ثق بذلك كل الثقة . .

ـ لقد قدمت لى عشاء فاخرا ، وستقدم لى مساعدات مهمة فى الأيام القادمة ، فضلا عن أننا أبناء حى واحد . بنا إلى مقهى ودود بالباب الأخضر . .

وسرنا جنبا إلى جنب نحو الحى العتيق حتى اخترقنا القبو الأثرى إلى الباب الأخضر ، وجلسنا ندخن البورى ونشرب القهوة على حين جرى الحديث فى سكون الليل الطويل . .

٣

هجعت عطفة الباب الأخضر تحت ستار الليل ، تعود فى تلك الساعة أفواج من الشحاذين إلى أركانهم ، ينطلق المجاذيب فى جنباتها ، يفوح البخور من زواياها . لا غريب يطرقها ليلا إلا رواد مقهى ودود القلائل ، وجمعيهم من مدخنى البورى ، قال جعفر :

ـ دعنى أحدثك عن عهد الأسطورة . .

ـ لعلك تقصد الطفولة .

ـ إنى أعنى ما أقول فلا تقاطعنى ، لا توجد طفولة ، ولكن يوجد حلم وأسطورة ، عهد الحلم والأسطورة ، وهو يفرض ذاته فى عذوبة فائقة ، وربما زائفة ، بسبب من معاناة الحاضر الأليمة عادة ، وهو دوى ضخم فى وجدانى وعندما أحلله لا أجده شيئا ، وهذا ما

يؤكد طبيعته الأسطورية، حسبك أن تعرف أن قطبيه الأساسيين ـ أبى وأمى ـ لا أكاد أعرف عنهما شيئا ذا بال.

ـ هل غادراك وأنت طفل؟

ـ لا أذكر أبى بتاتا، لا صورة له فى ذاكرتى ولم يخلف صورة فوتوغرافية لتذكرنى به، وقد فارق الدنيا قبل أن ينجب غيرى، ولا يوجد سوى موقف واحد يشير إليه إشارة غامضة، موقفه يوم الاحتفال بالمحمل وراء نافذة تطل على مرجوش، وأنا ممتط قفاه وأنظر من فوق منكبه إلى الجموع، وإلى رأس المحمل المذهب الذى يتبختر فى مستوى النافذة، موقف يدل على العطف والحنان أليس كذلك؟ والمحمل مَعْلم من معالم الأسطورة، أما الجموع فحقيقة من نوع خاص، بعثت فى نفسى ذات يوم فى مكتبى بميدان باب الخلق فهتفت فى وجه «سعد كبير» وقلت...

قاطعته:

ـ نحن الآن فى الأسطورة فلا تجاوز حدودها!

ـ دعنى أتكلم بحرية فإنى أكره القيود!

ـ ولكن الحكاية ستذروها رياح الخواطر فأضل بين شذراتها!

قهقه قائلا:

ـ ألا تسمح لى بأن أعبث بالزمن كما عبث بى؟! حسن، لنعد إلى الأسطورة، إلى الجن الماجن والجماد اللعوب والحقائق الطيفية والأحلام الحقيقية، لنعد إلى الأسطورة، قلت لك إننى لا أتذكر أبى، ولكننى لا أنسى يد أمى.

ـ يد أمك؟

ـ صبرا، لقد مات أبى، كيف؟ ولم؟ لا أدرى، ولكنه مات فى ريعان الشباب كما علمت فيما بعد، كنت فى الخامسة وربما دون

ذلك، حتى بيت مرجوش لا أتذكره. ثمة حجرة يصعد إليها من الدهليز بسلم ذى درجتين، وفراش مرتفع يرقى إليه بسلم خشبى يغرى باللعب، ونارجيلة معزولة فوق صوان حتى لا تمتد لها يدى، وقطط مدللة، وجندرة، وكرار مظلم تسكنه أنواع شتى من الجن، وفأر أسود، ومبخرة، وقلة مغروسة فى صينية يسبح الليمون فى مائها، وكانون وزكائب فحم، ودجاج وديك مزهو فخور، مات أبى لا أدرى كيف؟ ولا أدرى ماذا كان يعمل؟ ولكن بوسعى أن أحدثك عن الموت نفسه فإنى به خبير، إنى من صنّاعه، حق لى يوما أن أقول إننى واهب الحياة، فعندما يشتعل الغضب وتلتهم ألسنته كلمات السماء تفتح أبواب غامضة تتسلل منها الشياطين، بل يجىء إبليس نفسه فى موكبه النارى يحف به القضاة ورجال الشرطة والسجانون، عند ذاك يغيّر جعفر الراوى اسمه ولقبه وجلده..

قلت برجاء:

ـ ماذا عن وجه أبيك؟

ـ سامحك الله، إنك خانق الإلهام، تود أن تعرف كيف مات أبى كما لو كان أباك أنت، ماذا أعرف عن ذلك؟ أستيقظ فى الظلام فأنتبه إلى أن أمى تحملنى بين ذراعيها وتغادر بيتنا إلى بيت جارتنا، ولا شك فى أن النوم غلبنى، ولما أستيقظ فى الصباح أجدنى فى مكان غريب فأبكى، تجىء الجارة بطعام فأسأل عن أمى.

ـ أمك فى مشوار وستجىء فى الحال.. تناول طعامك.

وأتناول الطعام رغم ضيقى، وأسمع طوال الوقت صواتا، ولكن الصوات والزغاريد أصوات مألوفة فى حارتنا، وأرجع إلى بيتنا فى نفس اليوم ليلا أو فى اليوم التالى فألقى جوا غريبا وكئيبا يفشى سرا أليما

لا أعرف كنهه، ولكن تصيبنى منه وحشة وقلق مبهم، ها هى ذى أمى، ما أشد تغيرها! جلبابها أسود، وجهها مريض شاحب، نظرتها خابية وذابلة، فقد البيت مناخه النقى ومرحه الأصيل.

ـ ما لك يا أمى؟

ـ كل شىء طيب، العب..

ـ أين أبى؟

ودارت وجهها عنى وهى تقول:

ـ سافر.. العب.. عندك السطح ولا تكثر من الأسئلة..

إننى أعامل معاملة جديدة لا تخلو من جفاء وقلة اكتراث، أمى تهرب منى، تهرب بعينيها إن لم تهرب بجسمها كله، وهى تبكى من وراء ظهرى، أبى لا يعود من السفر، ثم إننى لست جاهلا كل الجهل، بلغتنى أشياء عن الله.. الشيطان... الجن... الجنة والنار.. حتى الموت بلغتنى عنه أشياء منذرة بغير السرور، متى يعود أبى من سفره؟ ومتى يرجع وجه أمى إلى صفائه المعهود؟ وكم دام انتظارى القلق لأبى؟ ومتى أدركنى اليأس منه؟ وكيف أنسيته وشغلت عنه؟ وكيف واصلت حياتى بعد ذلك وكأن شيئا لم يكن؟ نسيت ذلك كله ولا سبيل إلى تذكره وتسجيله، أما يد أمى فلا يمكن أن تنسى..

ـ ذكرت مرارا يد أمك؟

ـ تمسك بى أو أمسك بها ونسير معا فى الحوارى والأسواق..

ـ للتسوق أم للنزهة؟

كنت بدأت آنس إلى روحه المتقدة وراء الأطلال والخرائب، وبدا هو سعيدا ممتنا للعشاء والبورى وظفره بمستمع يتابع ما يقول باهتمام، قال:

ـ أحيانا أحاول أن أتذكر صورة أمي فلا أعثر على شيء ذي بال، ما طولها على سبيل المثال؟ كنت بطبيعة الحال أقصر منها جداً ودائما أنظر إلى فوق حين أحدثها، ولكن ذلك لا يدل على شيء ولا يحدد طولها، ولا فكرة لى عن وزنها كذلك، ولا لون عينيها، ولا لونها نفسه، ثمة صورة عامة غير محددة الخطوط، وإشارات ونبرات غير مسموعة، وعواطف جياشة، وابتسامات وضحكات وزجرات، أشبه بأطياف الأحلام. غير أننى أستطيع أن أقرر بأنها كانت جميلة، لولا جمالها لما حدثت المأساة، كما أننى أذكر قول جارتنا لمناسبة منسية: «ولد يا جعفر يا بن الست الجميلة»، ولكنها لم تبق فى الحياة كثيرا حتى تمكننى من حفظها فى قلبى من الدمار، يدها فقط التى بقيت معى، أحس حتى الساعة مسها وضغطها وشدها وانسيابها، وهى تمضى بى من مكان إلى مكان، خلال طرقات مسقوفة ومكشوفة، وتيارات من النساء والرجال والحمير والعربات، أمام الدكاكين وفى الأضرحة والتكايا، وعند مجالس المجاذيب وقراء الغيب، وباعة الحلوى واللعب، تقودنى فى جلبابى وعلى رأسى طاقية مزركشة تتدلى من مقدمها تعويذة كالحلية، وكانت أحاديثها متنوعة ذات صيغ شعرية تخاطب بهاالكائنات جميعا كلا بلغته الخاصة به، فهى تخاطب الله فى سمائه، وتخاطب الأنبياء والملائكة، كما تخاطب الأولياء فى أضرحتهم، حتى الجن والطير والجماد والموتى، وأخيرا ذلك الحديث المتقطع بالتنهدات الذى تناجى به الحظ الأسود، كانت الدنيا حية واعية تتلقى الكلام وترده، وتشارك بإرادتها الخفية فى حياتنا اليومية، لا فرق فى ذلك بين ملاك وباب ضريح، بين الهدهد وبوابات القاهرة القديمة، حتى الجن كانت تلين لكلماتها السحرية، وبفضل ذلك نجوت من مهالك لا حصر لها. .

ولما وجدته جادا لم أتمالك من الضحك، فسألنى دون أن يخرج من جديته:

ـ علام تضحك؟

فقلت بلهجة المعتذر:

ـ إنك تروى حلما، ولكنك الآن تعرف تفسيره وتأويله..

فقال بكبرياء:

ـ لا تتخيل أنك تعرف من الدنيا نصف ما عرفت.

ـ هكذا؟

ـ إنى بحر ولا فخر!

ـ ولكنك لا تفرق بين الحقيقة والخرافة.

ـ لا توجد خرافات وحقائق، ولكن توجد أنواع من الحقائق تختلف باختلاف أطوار العمر وبنوعية الجهاز الذى ندركها به، فالأساطير حقائق مثل حقائق الطبيعة والرياضة والتاريخ، ولكل جهازه الروحى، وإليك مثالا حيا، فقد أخذتنى أمى ذات يوم لزيارة قبر أبى بين قبور الفقراء المكشوفة فى العراء، ثم راحت تناجيه قائلة: «زوجتك وابنك يحييانك ويسألان الله لك الرحمة والغفران يا أحب الناس وأكرمهم، إنى أشكو إليك وحدتى وهمى فادع لنا ربك يا حبيب». وسرعان ما ألصقت أذنى بجدار القبر فسمعت تنهدة وكلاما أخبرت به أمى فقالت لى: «مبارك أنت حتى يوم الدين».

فسألته بإشفاق:

ـ ماذا قال لك أبوك؟

ـ إنك غير مؤهل لتصديقى فلن أجيبك!

ساورنى شعور بأنه يغطى ماء الدعابة بسطح من الجدية الخشنة أو أنه

يريد إحاطة أسطورته بجو أسطورى يتوافق معها ليرضى حنين قلبه، فتمتمت مذعنا:

- فوق كل ذى علم عليم.

- كانت دنيانا دنيا حية، تنبض بالرغبات والعواطف والأحلام، فيها الجد والمزاح، فيها الفرح والأسى، ينتظمهم جميعا - الإنس والجن والحيوان والجماد - لحن التفاهم والتعامل..

- ولكنك تدرك ذلك كله؟

- كل الإدراك. بشغف وإصرار..

- ألم يطوقك الخوف؟

- أحيانا، ولكنى سرعان ما ملكت أسلحة الدفاع والهجوم وصرت سيد الدنيا. كنت ذات مساء ألاعب الليمون فى صينية القلل على حافة النافذة فما أدرى إلا ورأس كائن يتطلع إلىّ من موضع فى مستوى النافذة من الطريق، عيناه تضيئان فى الظلام وقدماه منغرستان فى الأرض، فتراجعت مضطربا حتى استلقيت على ظهرى فوق أرض الحجرة ومزقت صرختى سكون الليل، وقد علمت فيما بعد أن لقاء الإنسى بالجنى لا يجوز أن يتم على ذلك النحو. وقالت لى أمى إنه آن لى أن أحفظ الصمدية، أما عفاريت بيتنا - وهم يقيمون فى الكرار - فكانوا يميلون بطبعهم للدعابة، ولا يصدر عنهم أذى حقيقى، يخلطون المش بالعسل، أو يخفون السمن لاستعمالهم الشخصى، أو يطفئون المصباح بيد الماشى ليلا، وأسوأ مزاحهم تحويل الأحلام إلى كوابيس..

- هل تستطيع أن تعطينى فكرة عن صورة العفريت؟

- كلا، إنك غير مؤهل للتصديق، ثم إن الجن تختفى من حياة الفرد مع اختفاء عهد الأسطورة وسرعان ما ينساها تماما، بل إنه ينكرها،

رغم أنه يلقاها كل يوم فى صور جديدة من البشر، وفى الحال الأخيرة يصدر عنها شر حقيقى وأذى كبير، ولكنك تصر على أن الجن خرافة ليس إلا، ومن ناحية أخرى فقد شاء لى القدر أن أرى النور المبارك فى ليلة القدر وأنا جالس على حجر أمى أتطلع إلى السماء! فتحت نافذة وأطل منها نور باهر طمس أضواء النجوم. .

فقلت ضاحكا:

- يقال إنه لا يرى ليلة القدر إلا من كُتبت له السعادة من البشر.

فقهقه طويلا، ثم قال:

- يبدو أنك غلبتنى هذه المرة، ولكن إلى حين فقط، حقّا إنى أبلغ مثال للبؤس ولكن العبرة بالخواتيم، والخاتمة ما زالت مجهولة.

وقد أجد الجواب فى الجنة، ولى مع الجنة تاريخ طويل، كانت أمى تحدثنى عنها حديث الخبير، فأحببتها حبا لا مزيد عليه، خلبتنى وسلبت لبى فصارت حلمى الباهر، جنة السحر حيث يُرى الله بالعين ويسمع بالأذن ويخاطب باللسان، فى حديقة الأنهار والألحان والشباب الدائم. ولكن لنرجع إلى حديث أمى، كيف كانت تعيش بعد وفاة أبى؟ خطر لى هذا السؤال فيما بعد ولم يسعفنى الجواب، كنا نغادر بيتنا كل يوم، نزور أضرحة ودكاكين ونبتاع ما يلزمنا ثم نرجع إلى بيتنا لتنهمك هى فى الواجبات المنزلية وآوى أنا إلى جنتى الأرضية بين القطط والدجاج، وقد تزورنا جارتنا، وكان لا أهل لى ولا أهل لها، أكانت تملك مالا؟ حتى اليوم لم أعرف وجه الحقيقة فى ذلك، وقد ظلت ترتدى السواد عقب وفاة أبى، وكانت تبكى أحيانا إذا خلت إلى نفسها وأكثر من مرة ضبطتها وهى تبكى، وأدركت سر العلاقة بين البكاء وبين اختفاء أبى، وسألتها:

ـ ألست تقولين إن أبى يقيم بين يدى الله؟

فأجابت بالإيجاب، فسألتها:

ـ إذن فلماذا تبكين؟

فقالت:

ـ إنه لخطأ يا جعفر، ولكن الدموع تفيض رغم إرادة الإنسان.

لم يقعدنى ذلك عن مغامراتى اليومية فأمضى فى البهجة، أجمع البيض، أطارد الفئران، أتحدى العفاريت، ولبثت المغامرة السعيدة عاما عقب وفاة أبى، وأخذت تجذبنى حكايات الرباب فى المقهى تحت النافذة، تابعتها باهتمام على قدر استيعابى لها، وشاهدت معارك تنشب بسبب التعصب لأبطالها، ومن نفس النافذة شاهدت معارك الفتوات فى الزفاف، فأعجبت بالفتوات كإعجابى بالجن، وحلمت طويلا بأن أكون فتوة إن أعجزنى أن أكون عفريتا..

سألته:

ـ ألم يتحقق لك حلم من أحلام الطفولة؟

ـ لا تسخر منى وانتظر، أريد أن أحدثك عن الحب فى عهد الأسطورة.

ـ ولكن عهد الأسطورة ليس بعهد الحب..

ـ ولكن الحب بدأ عندى من سن السادسة، كنت أحب الغوص وسط البنات فى ليالى رمضان، والعلقة الوحيدة الجادة التى أصابتنى من يد أمى كانت بسبب الحب، إذ أغويت بنتا تماثلنى فى السن فأخذتها إلى سحارة وأنزلت الغطاء علينا، ولكن لم يدم لى الحب طويلا فسرعان ما بوغتُ برفع الغطاء فرفعت وجهى فزعا فرأيت وجه أمى يحملق فىّ وضفيرتها تسقط فوق رأسى، وعلى فكرة كانت ضفيرتها طويلة جدًا وكنت ألعب بها ما وجدت إلى

ذلك سبيلا فأحلها وأعقدها وأدوّرها كحبل، لا شك فى أن أمى كانت جميلة، ولولا جمالها ما نشأت المأساة أصلا.

ـ أعطنى فكرة عن حب الطفولة . .

وهو يضحك :

ـ إنه يبدو عبثا ضائعا، ولكنى لا أذكر أنه صحب بانفعالات حادة قاربت السكر . .

ـ ذاك شذوذ!

ـ لست تربويا على أى حال، وبوسعى أن أوكد لك أن الجنس لم يكن عنصرا طاغيا فى حياتى، ولكنه لعب دورا حاسما فى حينه، أما فى الطفولة فقد أسهم فى نطاقه الضيق فى تأليف الأسطورة، غير أن الأسطورة تعرضت لضربة قاضية لم تكن فى الحسبان، فقد استيقظت ذات صباح وحدى دون أن توقظنى أمى كالعادة. أدركت أننى استيقظت وحدى عندما وجدتها مستغرقة فى النوم، راقدة على وجهها، وسّرنى جدّا أن أوقظها ولو مرة فى حياتى الصغيرة. قربت فمى فى أذنها وناديتها، مرة ومرة وهى لا تستجيب، حرّكتها بلطف مكررا النداء، ارتفع صوتى واشتد تحريكى لها ولا مجيب، وأصررت على إيقاظها، وتماديت فى إصرارى حتى ملأ صوتى الحجرة بلا أدنى نتيجة، ويئست تماما فانزلقت من الفراش وغادرت الحجرة، وتناولت من فوق الكنصول رمانة وصعدت إلى السطح وأنا أقشرها وأقضم حباتها الكهرمانية ثم أتفل حثالتها للدجاج، ورأيت جارتنا فجرّنا الحديث إلى الحال التى تركت عليها أمى، وجعلت تحقق معى ثم أمرتنى أن أفتح لها الباب، وهرولت الجارة إلى أمى وانكبت فوقها وأنا واقف عند الباب، وما لبثت أن ضربت صدرها بيدها وهتفت : «يا خبر

أسود يا أم جعفر»، ثم أقبلت نحوى فرفعتنى إلى صدرها ومضت بى إلى مسكنها، وانقبض قلبى لذلك التصرف، وتذكرت به تصرفا مشابها يوم اختفى أبى إلى الأبد، ومضيت أصرخ: «أمى . . أريد أمى . .»، وقضيت فى بيت جارتنا يومين كانا أسوأ أيام عهد الأسطورة، وفى مساء اليوم الثانى طيبت الجارة خاطرى وقالت لى:

ـ لا تحزن يا جعفر فربك رحمن رحيم.

فقلت يائسا:

ـ أنا فاهم، أمى ذهبت إلى أبى . .

فدمعت عينا المرأة وتمتمت:

ـ ربنا معك، هو الأب والأم، هو كل شىء.

وقال زوجها وكان يدلك أسنانه بمسواك:

ـ يجب عمل شىء، ولو باللجوء للحكومة . .

فقالت المرأة:

ـ حتى الحجر يلين!

ومضت أيام وأنا أعيش ضائعا ذاهلا حتى أقبلت علىّ الجارة تقول متهللة:

ـ يا حبيبى، أبشر، أمر ربنا بالرحمة، ستذهب إلى جدك!

لم أفهم شيئا.

كنت أسمع الكلمة لأول مرة.

٤

سألته بدهشة :

ـ لأول مرة؟!

ـ لأول مرة .

ـ لم يجر له ذكر فى حياة أمك؟

ـ مطلقا ، علما بأنه كان فى نفس الحى يقيم . .

ـ ولم أخفت أمك عنك أمره؟

ـ ربما لحنقها عليه ، على أى حال أفهمتنى جارتنا أنه جدى ، أنه أبو أبى ، ولم يكن البيت بعيدا عن مرجوش ، ولا كان غريبا علىّ فطالما سرت تحت سوره العالى ونحن ـ أنا وأمى ـ فى طريقنا إلى الحسين ، وأذكر أننى سألتها مرة عن هوية ذلك السور العالى الذى يقوم أمام قبو بيت القاضى كالجبل فقالت لى بعجلة : «إنه السجن حيث يقضى المجرمون أعمارهم فى الظلام» ، ولم يكن معزولا عما حوله ، ففى الأحياء الشعبية تتلاصق بيوت الأغنياء والفقراء ، ولم يكن يظهر من البيت ذاته شىء ولا من حديقته ، فقط سوره المطل على بيت المال ، وهو سور حجرى يمتد طولا وارتفاعا كأنه حقيقة سور سجن أو جدار قلعة . أما بابه فيفتح على عطفة جانبية ، ولما اجتزنا بوابته تم أول لقاء بينى وبين حديقته فلم يكن لى عهد قبل ذلك بالحدائق ، ولا رأيت من عالم النبات إلا شجرة بلخ بميدان بيت القاضى وشجيرة صبار بالقرافة . اقتحم أذنى تغريد البلابل وزقزقة العصافير ورأيت الأغصان محملة متواثبة بأفرادها الصغيرة

الملونة، كما رأيت أسرابا من الحمام تحوم حول برج قائم وراء تكعيبة العنب، يطل على جدول ماء يشق الحديقة بالعرض يقف فيه البستانى مغروسا حتى ثلث ساقه وبيده مقطف، أما أنفى فقد فغمته أخلاط من روائح الجنة حتى أثملته، وقد ذهلت حتى أوشكت أن أصرخ من الأعماق، وسرت فى ممشى تتجاذبنى على الصفين ألوان الأزهار والورود فى طريقى إلى السلاملك، وشد جارى على يدى وهمس فى أذنى مشجعا :

ـ هذا هو بيتك الجديد يا جعفر . .

كنت فى حيرة شاملة، وكان جدى يجلس على أريكة ذات مسند عال مطعم بالأرابيسك تتوسط السلاملك، والظاهر أن جارى أنهى حديثا قصيرا مع جدى ثم قبّل يده وذهب، فوجدت نفسى وحيداً تحت بصره، لما أفق من سحر العصافير والأزهار والجدول، وفى أعماق قلبى أسى لم تهن نواجذه، إنه يجلس متربعا فى جلباب أبيض فضفاض متلفعا بشملة مزركشة مغطى الرأس بطاقية بيضاء، طويل الوجه نحيله، قمحى اللون ذو نظرة هادئة مستقرة، جبهته عالية بصورة بارزة وأنفه طويل شامخ، أما لحيته فبيضاء مسدلة على الرقبة وتلامس أعلى الصدر، تبادلنا نظرة فلم أقرأ فى عينيه ما يخيف وتبدى لى على قمة عمر طويل وآية فى النبل والوقار ومالكا جديرا بالحديقة الفاتنة .

وقفت غير بعيد وغير قريب فى جلبابى المقلم وطاقيتى المزركشة حاملة التعويذة أنتعل مركوبا ملونا وأحمل تحت إبطى لفافة تحوى ثيابى القليلة .

أطال إلىّ النظر حتى اجتاحتنى رغبة فى الفرار .

وكأنما قرأ ما فى صدرى فابتسم، وأشار إلىّ بالاقتراب .

قلت بحرارة :

ـ أريد أن أرجع إلى أمى .

مد لى يده فاقتربت مادا يدى، تصافحنا، تملكتنى رعشة بكاء، ولكننى تمالكت نفسى فلم أبك، وسرى إلى جسدى من ملمسه دفء، قال برقة:

ـ أهلا بك.

أجلسنى إلى جانبه وقال:

ـ أنت فى بيتك، هل أعجبتك الحديقة؟

فأحنيت رأسى بالإيجاب:

ـ تكلم، إنى أحب الكلمات.

فغمغمت:

ـ نعم.

ـ أتعرف من أكون؟

ـ جدى.

ـ ما معنى ذلك؟

ـ أبو أبى..

ـ تصدق ذلك؟

ـ نعم.

ـ هل تتذكر أباك؟

ـ كان يحملنى لأرى المحمل، ولكنى أتذكر أمى.. وأجهشت فى البكاء فربّت ظهرى، ثم سأل:

ـ ماذا تذكر عن أبيك أيضا؟

ـ زرت قبره.

فنحّى وجهه عنى قليلا، ثم سأل:

ـ ما اسمك؟

ـ جعفر .

ـ ثم ماذا؟

ـ جعفر إبراهيم . .

ـ ثم ماذا؟

ـ جعفر إبراهيم!

ـ جعفر إبراهيم سيد الراوى، أعد . .

ـ جعفر إبراهيم سيد الراوى .

ـ مَن الذى خلقك؟

ـ الله .

ـ ومَن نبيك؟

ـ سيدنا محمد .

ـ هل عرفت الصلاة؟

ـ كلا .

ـ ماذا تحفظ من القرآن؟

ـ قل هو الله أحد .

ـ ألم تحفظ الفاتحة؟

ـ كلا .

ـ ولم بدأت بقل هو الله أحد؟

ـ لفائدتها فى إخضاع الجن .

ـ هل تتعامل مع الجن؟

ـ نعم، كثيرون منهم يقيمون فى كرار بيتنا، وهم يملئون مرجوش ليلا!

ـ هل رأيتهم بعينيك؟

ـ كثيرا .

ـ إنك تكذب على جدك .

ـ رأيتهم وتعاملت معهم . .

أجرى أصبعه على الخطوط المكونة لوجهى برقة وعناية فأنست إليه وتخلى أكثر الارتباك عنى . قال :

ـ لا تكذب يا جعفر فأنا لا أحب الكذب .

ـ ولكنى أقول الصدق .

ـ انظر بعينيك ولا تتخيل ما لا وجود له . .

وسكت فسألته بدورى :

ـ يا جدى . .

فنظر إلىّ مستطلعا فواصلت :

ـ لم لَمْ تزرنا؟

مد بصره إلى الحديقة ، ثم قال :

ـ جدك متقدم فى السن كما ترى .

ـ لم لَمْ تدعنا إلى بيتك؟

بعد صمت آخر أجاب :

ـ رفض أبوك ذلك!

فسألته :

ـ هل سأقيم هنا دائما؟

ـ إنه بيتك يا جعفر .

ـ وألعب فى الحديقة؟

ـ وستلعب فى الحديقة ، ولكن لن تكون حياتك لعبا خالصا ، إنك فى السادسة ويجب أن تبدأ الحياة كذلك . .

وبدأت الحياة الجديدة.

* * *

وتوقف ملتفتا نحوى وهو يقول بحدة:

ـ ذلك هو جدى، الراوى، صاحب الوقف، فأى نظام يحرمنى حقى الثابت؟

فقلت برجاء:

ـ لنرجع إلى حياتك الجديدة!

ـ لست تافها كما تتصور، إنى صاحب حق. وذو ثقافة، بوسعى أن أحدثك عن عيوب الديمقراطية، وعيوب الشيوعية...

ـ وستحدثنى عن ذلك فى سياق حكايتك، ولكن ارجع الآن إلى حياتك الجديدة.

فرفع منكبيه فى أسف، وقال:

ـ يا للخسارة! لقد ضعف بصرى، وإنى مهدد بفقده نهائيا ذات يوم، ولم يبق من العمر إلا أيام، وما زالت البشرية تعانى العذاب والقلق، وما زلنا نموت مخلفين وراءنا أملا قد تحقق ونسى، وسبع خيبات تؤرقنا حتى الاحتضار، وأنت تريدنى على أن أروى قصتى بالطريقة التى تعجبك أنت لا التى أرتاح إليها أنا..

فقلت برجاء:

ـ النظام هو ما يلزمنا لنلم بقصتك فى الأيام القلائل الباقية من الحياة..

ـ كانت الحياة الجديدة حلما بديعا، نسيت الماضى كله، نسى القلب الخئون أمى الراحلة التى لم أزر لها قبرا، حلمت بها ذات ليلة ولما استيقظت شعرت بثقل قلبى وبكيت، ولكن القلوب الصغيرة

تتعزى بسرعة لا تتأتى إلا لكبار الحكماء، شغلت تماما بجدول الماء وأشجار الحناء والنخيل والليمون والأعناب والضفادع والعصافير والبلابل والحمام واليمام، وازّين خيالى بالفراش النحاسى المذهب والسجاجيد الفارسية والصوان الفخم والمرآة الكبيرة المصقولة والستائر الملونة والدواوين الوثيرة والشرفة المسقوفة باللبلاب والحمام الكبير بأرضيته المعصرانى وخزان مياهه العجيب، كنت أكتشف فى كل ركن شيئا جديدا وثمينا وأثريا باسم جديد ومنظر فتان، على أن ذلك كله بهرنى دون أن يستحوذ على قلبى حقيقة فلم يراع فى إعداد القصر مطالب الأطفال، لذلك لم يؤثر فىّ شىء مثلما أثّر حمار البستانى، وجدت فيه الصديق والملهاة وقضيت على ظهره الوقت الطويل قاطعا الممشى ذهابا وإيابا وأنا أتفادى من الغصون الدانية، ، وأعجبت كثيرا بالطلمبة والبئر والفسقية وتمثال الطاووس الذى يتوسطها فوق عمود مرمرى. وتولت أمرى امرأة كهلة حنون نحاسية اللون تدعى بهجة سرعان ما وثقت بيننا العواطف الطيبة المتبادلة، ومن بهجة عرفت الكثير عن مأساة مولدى فى مناسبات شتى وعلى مدى غير قصير، وتبين لى أن جدى كان يعيش فى البيت وحده محاطا بحاشية من الوصيفات والخدم، جدتى ماتت منذ زمن قصير، كما مات أبى بعيدا عن البيت وكان الابن الوحيد الذى تبقى له على قيد الحياة حتى بلغ سن الرجولة عقب سبعة إخوة ماتوا بين الطفولة والصبا، فكان الأمل الباقى بعد عذاب وكان حلم المستقبل الذى تمخض ـ فى نظر جدى ولا شك ـ عن خيبة أمل أنكى من الموت وإلا ما هان عليه أن يعاقبه حتى القطيعة المطلقة والغربة العدائية والنبذ من البيت والأسرة والتراث وذلك ما يجعل من جدى لغزا فى نظرى، شخصيته توحى بالسماحة والرحمة والعذوبة، ولكنه ينقلب

بالغضب شيطانا أو حجرا صلدا، عرفته وهو شبه معتكف فى بيته ، ولكنه كان فى الأصل أزهريا، ورث عن أبيه وأجداده الثراء الواسع والأزهر، على ذلك لم يعمل فى وظيفة عامة دينية أو تعليمية، عمله كان إدارة أملاكه، فراغه كان الدراسة والاطلاع على علوم الدين والفلسفة والاقتصاد والسياسة والأدب، بهوه كان ملتقى لرجال الدين والتصوف والسياسة والأدب.

* * *

سألته :

ـ ألم يكن له نشاط فى الكتابة؟

ـ كلا، ولكنه كان يدون مذكرات أو يوميات بصفة مستمرة. . . ولا أدرى عنها شيئا. .

ـ وهل كان كذلك أبوه وجده؟

ـ كانا دائما من هيئة كبار العلماء، هو وحده الذى آثر استثمار أملاكه والحياة الحرة. .

ـ هل لك فكرة عن الرجل العصامى فى سلسلة أجدادك، أعنى الرجل العادى الفقير الذى منه نشأ الثراء؟

ـ إنها أسرة عريقة فى الثراء والدين ولعلّى أنا أول صعلوك فيها!

فضحكت وقهقه، ثم واصل :

ـ نشأ أبى نشأة دينية التزاما بخط الأسرة حتى فاز بالعالمية، وأراد أبى أن يسافر إلى أوربا للسياحة والدراسة فتردد جدى مليا، ثم وهبه الموافقة فسافر إلى فرنسا، تعلم الفرنسية، استمع إلى محاضرات فى الفلسفة واللاهوت فى دراسة حرة، ثم رجع إلى وطنه دون أن يحصل على شهادة أو يحرر رسالة، وأعلن عن رغبته فى مساعدة جدى فى إدارة الأملاك فسمح له بذلك وكان يرسل بمقالات إلى

الصحف بين الحين والحين، ثم أحب أمى فى الوقت الذى كان جدى يدبر تزويجه من كريمة شيخ الأزهر، وتزوج بها دون مبالاة، ماذا كان عيبها؟ الفقر؟ الحق أننى لم أعرف لها أهلا على الإطلاق، لا خال ولا خالة، لا قريب من قريب أو بعيد، على أى حال انفجر غضب الراوى، وهوى بقبضته على رأس الابن الوحيد فقطعه ونبذه، وخُيِّل إلى كثيرين أن سلسلة الراوى بمضمونها التاريخى قد انعدمت وانتهت، ولا شك أن أبى لم تكن تهمه سلسلة الراوى فى شىء، كان يريد أن يحقق ذاته بطريقة أخرى، ولا أخفى عنك أننى أعجبت به وأسفت لموته الذى لم أحزن له فى حينه لصغر سنى..

* * *

سألته:

- أليس لديك فكرة عن المقالات التى كان ينشرها فى الصحف؟

- بحثت عنها فى أرشيف بعض الصحف، وهى تدور حول التوفيق بين الدين من ناحية، والعلم والفلسفة من ناحية أخرى، واعتبرتها دون تحيز عصرية ومتقدمة، وبصفة عامة يمكن أن يصنف أبى فى الليبراليين، وعلمت أن أبى عمل مترجما فى صحيفة الفجر عقب استقلاله عن أبيه، وأذكر أننى ناقشت جدى فى موقف أبى عندما بلغت سن المناقشة، سألته ذات مرة ونحن فى جلسة مؤانسة:

- كيف هان عليك يا جدى أن تطرد أبى لزواجه من امرأة من عامة الشعب؟ إنك رجل مؤمن، صافى الروح، نبيل الخلق فكيف هان ذلك عليك؟

وكان واضحا أنه لم يرحب بالسؤال، ولكنه أجابنى قائلا:

- إنك مخطئ فى تصورك، إنى أرى الإنسان نوعين: إنسان إلهى

وإنسان دنيوى، الإنسان الإلهى هو من يعايش الله فى كل حين ولو كان قاطع طريق، والدنيوى هو من يعايش الدنيا ولوكان من رجال الدين. . .

ـ وهل كان أبى سيئا؟

ـ كان دنيويا فحسب. .

ـ كانت أمى طيبة ونبيلة. .

فتمتم:

ـ فليرحمها الله!

ثم واصل بعد هنيهة:

ـ لم أخطئ ولم أندم، ولكننى حزنت طويلا. .

كنت متأكدا من حزنه، لولا حزنه الدفين ما لان قلبه لى، وقال لى:

ـ لقد فتحت لك قلبى وبيتى، سيكون كل شىء لك، ولكن عليك أن تكون إنسانا إلهيا، إنى لا أدعوك للزهد فإن عملى الأول هو إدارة الأملاك. .

ورتب لى منذ أول يوم مدرسا يعلمنى مبادئ الدين واللغة والحساب. لقنت مبادئ دين جديد غير الدين الذى تلقيته على يد أمى، دين المغامرة والأسطورة والمعجزة والحلم والشبح، أما هذا فدين يبدأ بالتعلم والجدية، حفظ سور وشرحها، إلمام بالقواعد، ممارسة الصلاة والصيام، دين نظرى وعملى، ومدرس جاد يرفع التقارير لجدى أسبوعا بعد أسبوع. ولم يخف المدرس رضاه عنى فقال لى:

ـ أنت ولد مبارك، وليتم الله نعمته عليك. .

كنت قوى الحافظة، حسن الفهم، محبا للعمل، ومارست الصلاة بسرور مؤتما بجدى كما مارست الصيام، ولم ينسنى ذلك دينى الأول،

فتراكم الجديد فوق القديم، ولم يسكت صوت أمى المتردد فى أعماقى، وقد قال لى المدرس فى أثناء مناقشة:

ـ الضريح مبنى من المبانى والولى جثمان..

فقلت بإصرار:

ـ بل لكل شىء حياة لا تفنى أبدا.

فابتسم الرجل وقال:

ـ فلنترك خلافاتنا للزمن وللمزيد من العلم.

ويبدو أننى أحرزت تقدما يستحق الارتياح. وكان جدى يدعونى إلى شهود مجالسه العامرة بصفوة رجال الدين والدنيا، كان يدعونى لشهودها وقتا قصيرا يناسب استعدادى، وكثيرا ما سمعت القوم وهم ينوهون بأجدادى فى مواقفهم المأثورة حتى امتلأت فخرا بأولئك الرجال الممتازين الذين عُرفوا بالعلم والجود ومكارم الأخلاق، بقدر ما تنغص صفوى لغياب ذكر والدى، والظلام الذى يغشى أصل أمى، وكلما تقدم بى العمر عاودت التفكير فى أمى بمرارة أشد وأعمق، واقتنعت بأن مأساتها ـ ومأساة والدى بالتبعية ـ حادثة غير معقولة ومناقضة للدين الذى أتعلمه وأمارسه، وأن جدى يتصرف أحيانا تصرف من لا دين له! لقد ذهبت أمى، ولكنها أورثتنى دينها ومأساتها، وسوف يرسبان فى جانب من نفسى طويلا، ربما أطول مما تصورت.

وأغدق جدى على حبه وحنانه وهو يتابع نجاحى وتقدمى، قال لى:

ـ يا جعفر، أراك جديرا بتجديد شباب شجرتنا المباركة!

وقال لى:

ـ سر متأبطا ذراع الحكمة وافعل ما تشاء.

وقال لى أيضًا:

ـ مبارك من يتحلى بوحى الله، وأمام المجتهد وسيلة ليتبوأ العرش!

وفى نشوة من التفاؤل قال :

ـ خطواتك فى النجاح مباركة، وسوف تدخل الأزهر الشريف عما قريب، ألا يسرك ذلك؟

فأجبته بإخلاص :

ـ يسرنى جدّا يا جدى، وأود بعد ذلك أن أسافر إلى أوربا . .

فتجلى الاهتمام فى عينيه وسألنى :

ـ ما الذى جعلك تود ذلك؟

ـ أسوة بما فعل أبى !

فمسح على لحيته البيضاء وتمتم :

ـ عليك أن تتحلى بوحى الله ثم افعل ما تشاء . .

فترددت قليلا، ثم سألته :

ـ أكانت خطيئة أبى الوحيدة أنه تزوج من أمى؟

فتجهم وجهه وقال بحدة :

ـ ما مضى قد مضى .

وأغمض عينيه كأنما ليفرغ شحنة احتداده، ثم قال :

ـ لقد شرحت لك، ولكنك لا تريد أن تفهم !

قلت لك إن وجهه تجهم، ولكن ما رأيته كان أفظع من ذلك، لم تكن لحظة عابرة، ولكنه تصور فى صورة جديدة ومخيفة، تحجرت نظرته وشدت عضلاته وتغيّر لونه فخُيِّل إلىّ أنى أرى شخصا لم أره من قبل، عدو منطلق من بركان حاملا غضب الأرض، قل إنه الصاعقة أو الموت نفسه، ولكنها كانت لحظة عابرة خاطفة ثم عاد جدى إلى مجلسه. عدا ذلك لم أجده قاسيا ولا مخيفا ولا ثقيلا، كانت الإنسانية عبيره والحب إشارته حتى عز علىّ أن أصدق أنه فعل بأبى ما فعل، وكثيرا ما قلت

لنفسى: لعله كان يضمر الغفران ويتحين الفرص ليصدر عفوه لولا أن عاجلت المنية أبى فى عز شبابه، وحتى بعد لحظة تجهمه المخيفة حدست فى قوله: «ما مضى قد مضى» ألما أثارته الذكرى وندما يصر على مطاردته، ولعل عذابه ناشئ عن مثاليته المفرطة، فهو يطالب الإنسان بالسمو والتطهر والكمال، وباعتناق رؤياه فى الوجود، ويحتقر الضعف وما يراه انحلالا وتدهورا فى التكامل البشرى، هكذا اقتنعت بأن الطريق إلى حنانه واضح ومستقيم، ولكنه حافل بالجهد والصبر والعرق، والقوة والتقدم والسمو، وهو ما عناه بقوله «الإنسان الإلهى».

وفى المواسم كان يجتمع الزوار للاستماع والطرب فتغرد الحديقة بالأغانى الصوفية ترددها الحناجر الذهبية الذائعة الصيت، وكان جدى من عشاق الطرب، وله فيه ذوق يستوى فى مكانه من نفسه الغنية بشتى الاهتمامات الدينية والدنيوية، وكنت أتابع الأناشيد ساهرا حتى الفجر وأنتظر تلك السهرات بلهفة المحبين، وقد ضبطنى مرة وأنا أغنى:

أدر ذكر من أهوى

كنت مفترشا حصيرة تحت شجرة ليمون وأردد الغناء مقلدا الشيخ فانتبهت إلى ظله وهو يغطينى وأمسكت عن الغناء فى غاية من الارتباك والحياء، ووقفت أمامه فى أدب، ابتسم، تمتم:

ـ ما هذا؟ صوتك لا بأس به يا جعفر..

فأحنيت رأسى فى رضا وبركة، سألنى:

ـ ماذا تغنى أيضا فى خلوتك؟

فأجبت:

ـ أغنيات من العهد القديم.

ـ مثل ماذا؟

فترددت قليلا، ثم قلت:

ـ عصفورى يا أمه عصفورى.

فواصل ابتسامه وقال:

ـ هأنتذا تحفظ هنا أناشيد مباركة.

ومضى يتفقد الحديقة وقد بدا جليلا مضيئا.

وفى أوقات الفراغ كنت أجلس إلى بهجة لتحكى لى الحكايات، أو أغنى، أو ألعب فى الحديقة مع الحمار، وأحيانا ألاعب أبناء البستانى والطاهى وسواق الحنطور، وطيلة الوقت أتعطش للانطلاق فى الحارة، وهل يمكن أن أنسى رحلاتى المتواصلة فى حوارى القاهرة تشدنى يد أمى؟ وصارحت جدى برغبتى فى الخروج، فقال لى:

ـ اركب معى الحنطور فى نزهة المساء.

ـ أريد أن ألعب فى الحارة.

ـ أليست الحديقة أجمل من الحارة؟

فقلت بحرارة:

ـ أريد أن ألعب مع الأولاد فى الحارة.

فهز رأسه مستسلما وقال:

ـ بشرط ألا تغيب عن عين بهجة وألا يفوتك ميعاد صلاة.

هكذا خرجت إلى الطريق الذى منه جئت.

وكانت بهجة تجلس على كرسى أمام الباب لترعانى من بعيد، وسرعان ما عرفت أولاد الجيران، وفى مقدمتهم ابن لسواق سوارس يدعى محمد شكرون، كان حسن الصورة رغم ضخامة أنفه وعرجه، دعانى أول يوم إلى مسابقة الجرى، وجرى بأسلوب مضحك وبعناد،

وبين آونة وأخرى كان يثب وثبة شيطانية يقطع بها مسافة خيالية متحديا ضعفه الطبيعى، وكان لطيفا وصريحا فبعد أن تقرر له الفوز قال لى:

ـ إنك حفيد الشيخ الكبير وعلى من كان غنيا مثلك أن يشترى لنا الملبن الأحمر والسوبيا..

ولما أكل وشرب انبسط وراح يغنى:

من فوق شواشى الجبل باسمع نغم بالليل

عشق البنات البكارى هد منى الحيل

من فوق شواشى الجبل

وإذا به يملك صوتا عذبا يهز النفس هزا، وأدركت لتوى أننى لا أستطيع منافسته، ولكننى رغم ذلك غنيت ما حفظته من غنائه، فتكرر على مسمعى ما سبق أن قاله جدى لى، قال:

ـ صوتك لا بأس به!

فقلت له:

ـ صوتك جميل حقّا يا شكرون.

فقال فى مباهاة:

ـ ستسمعنى يوما مطربا من المطربين.

سرعان ما اتحدت علاقتنا فى صداقة وطيدة، تميزت وسط العلاقات السطحية الكثيرة عاطفة راسخة وعميقة، وكان الغناء محور اجتماعنا وبخاصة فى ليالى رمضان الساهرة، ومن ناحيتى دعوته لشهود سهرات الطرب الدينى فى بيتنا فسُرَّ لذلك سرورا لا مزيد عليه، وأبهجه أن يسمع أقطاب المنشدين وأن يدرس عن قرب مهاراتهم الغنائية، وخواصهم الصوتية، وقدراتهم فى التطريب والتأثير، وتجلى ذلك فى انفعاله العنيف الذى بلغ حد العشق والوله، ودفعه ذلك لاقتحام وقار

المجلس بجرأة فاقت كل تصور، فما كاد المنشد يختم وصلة، حتى قام محمد شكرون من مجلسه إلى جانبى وراح ينشد بصوته الحسن :

أهلا ببدر التم روح الجمال

فجذب الأسماع بحلاوة صوته وحداثة سنه، وعمت شهرته الحاضرين من منشدين ومدعوين، حتى جدى لم يخف إعجابه به، وكان بين الحاضرين شيخ يدعى طاهر البندقى، صوفى وملحن وأستاذ فى الموسيقى الشرقية ومن أقرب المقربين إلى جدى، فأعجب بشكرون جدًا وجاذبه الحديث طويلا، حتى عرف أصله وفصله وآماله، هذا هو سحر الغناء والجن يطربون لنا ونحن نطرب لهم، وقد زعم بعض أهل مرجوش أنهم كانوا يسمعون غناء مطرب من الجن قبيل الفجر . .

فقاطعته برجاء :

ـ دعنا من الجن، نحن الآن فى بيت الراوى، ثم إننى مؤمن تماما بأنك لا تصدق شيئا من ذلك . .

ـ الذكريات تنهمر كالمطر .

ـ هى دائما كالمطر ومهمتك أن تصنع جدولا صافيا . .

فتنهد ثم واصل :

ـ زار الشيخ طاهر البندقى جدى عقب أسبوع من مغامرة شكرون وأطلعه على خاطرة خطرت له وهى أن يعلّم محمد شكرون الموسيقى الشرقية ويدربه على الغناء فوافق جدى على ذلك بسرور، وتعهد بأداء نفقات التعليم والتدريب، وثبت عندى من ذلك حب جدى العميق للغناء والموسيقى، وأنها عاطفة مستقلة بذاتها عنده وليست تابعة لتدينه فحسب، وقد قلت له عندما أخبرنى بما قرره بخصوص صديقى :

ـ إنك تحب الغناء يا جدى!

فابتسم متسائلا :

ـ لم لا؟ إنه صديق الروح الحميم . .

ـ وهل سمعت يا جدى كبار المطربين؟

ـ نعم، فى بيوت الأصدقاء فى المناسبات السعيدة . ولم يكن إنفاقه على شكرون إلا مثلا من إنفاقه على المحتاجين من أهل حينا .

* * *

فقلت تلقائيا :

ـ وتوج ذلك بوقف أملاكه كلها للخير !

فصاح جعفر :

ـ أما ذلك فلا، لا خير فى خير يقوم على الشر !

ـ أعتذر عن المقاطعة . .

ـ اعتذر عن رأيك وهو الأهم .

ـ أعتذر .

نفخ غيظه وواصل حديثه قائلا :

ـ أصبح محمد شكرون تلميذا للشيخ طاهر البندقى، وأتاه الحظ عبر صداقتنا الوطيدة، وكنت أنا البواب الذى فتح له باب النجاح، وقد سررت لذلك سرورا بالغت فيه أمام جدى، ولكنه نظر إلىّ بارتياب وسألنى :

ـ هل يمازج سرورك شىء من الغيرة؟

فنفيت ذلك بشدة، ولكنه قال باستياء :

ـ الغيرة رذيلة لك عليها فى مثل سنك عذر، أما الكذب فلا عذر لك فيه، لا تكذب يا جعفر، كن دائما صادقا، لا تغضب جدك فهو يحب النقاء، وقد وهبك الله عقلا راجحا كما وهب صديقك

صوتا عذبا فانعم بما وهبك ولا تنغص صفوك بما تفتقد، ولو كنت ذا استعداد للغناء ما ساءنى أن تصير مطربا، فالمطرب أيضا يستطيع أن يكون إنسانا إلهيا، من رحمة الله أن كل شخص يسعه أن يكون إلهيا حتى الزبال، أما أنت فعليك أن تستعد لدخول الأزهر . .

فقلت بصدق :

ـ أعز آمالى يا جدى أن أوفق فى حياتى الدينية . .

لا أنكر أننى شعرت بشىء من الغيرة، وأزعجنى أن يقتحمنى جدى بقدرة خارقة على قراءة ما فى الصدور، ولكننى على أى حال شعرت بشىء من الغيرة، ها هو ذا شكرون يتفوق بموهبة لا حيلة للاجتهاد فيها، وهأنذا أعانى تناقض العواطف فى رحاب القلب المعذب. على أن أحلامى حامت حول الدين والحياة الدينية، وشعرت شعورا مبهما بأن ثمة رسالة ما تنتظرنى فى هذا المجال المقدس فتطلعت إليها أشواقى من الأعماق، ولم تغب عن خاطرى التركة الكبيرة التى سأرثها ذات يوم، عزبة المرج والعمارات والأموال السائلة، ولم يكن العمل يهمنى، ولكنى حلمت بالرسالة، والجلوس فوق أريكة جدى أستقبل الرجال، رجال الدين والدنيا، نناقش جميع الأمور المهمة، ونطرب مع المطربين فى أوقات الفراغ.

* * *

قلت مقاطعا :

ـ إنى أتذكر المغنى الأعرج كما أتذكرك فى الجبة والقفطان . .

فسألنى مباهيا :

ـ ألم تر بنفسك أن الله خلقنى فى صورة حسنة؟

ـ كنت حسن الصورة حقّا . .

ـ كنت حسن الصورة، حسن السريرة، شريف الآمال، وقد دخلت

الأزهر فى طور المراهقة مدعما بقوة إنسانية منورة، كأننى أمير سماوى، لأجد نفسى فى بيئة شعبية أصيلة أنهكها الفقر والتقشف والأسى، ولا تتيسر لها الإنسانية الحقة، إلا فى الجد الصارم والاجتهاد المتواصل وتحصيل العلم بلا هوادة، عرفت العديد من الأقران، وصادقت كثيرين، وقد ذكّرونى بشعبيتهم وخرافاتهم بمرجوش وبيد أمى وبأصلى المأساوى الأصيل، فأحببتهم رغم كل شىء، وكنت أدعوهم للعشاء مساء كل جمعة فى بيتى، وطيلة شهر رمضان كانت نخبة منهم تفطر معى وتتسحر معى وفيما بين الإفطار والسحور كنا نمضى الوقت فى المذاكرة والمناقشة، وبذلك اكتسبت مكانة فريدة لا تتأتى عادة لطالب، ولاحظ جدى سرورى بذلك، فقال لى:

- إياك والخيلاء، املأ قلبك بحب هؤلاء الفقراء الأشراف، واذكر دائما نعمة الله عليك..

ولكن تفوقى كان يزكينى دائما عنده، فشيخ التوحيد أثنى علىّ عند جدى، كذلك أستاذ الفقه والنحو، والمنطق، حتى سُرَّ جدى وقال لى:

- ستكون شيخا ممتازا.

ثم مستدركا:

- الأهم من ذلك أنك تمضى فى طريق النقاء بخطى ثابتة...

وقلت لجدى:

- أريد أن أهب حياتى للدين، لا أدرى كيف، ولكننى غير متحمس لأى عمل كالوعظ أو التدريس أو غيرهما..

- لا أهمية لذلك ألبتة، ما يهمنى هو إرادتك النقية، هو إيمانك وحبك للدين، بعد ذلك ستجد أن كل كتاب هو كتاب دين، وكل مكان معبد سواء فى مصر أم فى أوربا، وسييسر الله لك سبيل

الحكمة لتكون ممن يجودون بالحكمة، بالكلمة أو بالفعل، وهذه هى الحياة الإلهية . .

استثار ذلك حماسى لأعلى الدرجات، وكنت أتقدم مترع القلب بالإيمان والقداسة، أستضىء بمثل جدى فى الحياة، بحياته الجميلة الغنية التى عاشرتها فى قصره، بأصدقائه ومناقشاته وطربه.

ولكن كانت تمر بى ساعات سوداوية، تتسلل إلىّ من مكامنها فتغير مذاق الحياة، وتغشانى سحب الذكريات السود، فأفكر بحياة النفى التى عاناها أبى، ومأساة أمى ذات التاريخ الغامض المجهول، وعند ذلك يثور غضبى على جدى، وأحاسبه فى الخيال حسابا عسيرا، ويتبدى لى شيطانا فى ثوب ملاك، وأقول ما هو إلا رجل من الأعيان يستمتع بكل طيب فى الحياة ويزعم أنه قديس إلهى . .

ولم أجد من أفضى به إليه بهواجسى إلا محمد شكرون.

كان بدأ يشق طريقه بصعوبة فى ميدان مزدحم بأصحاب العروش من كبار المطربين والمطربات.

وكان يحب جدى ويحفظ له جميله ويقول عنه:

ـ إنه النبيل ابن النبلاء، لا نظير له فى خلق الله، فاسأله:

ـ وما رأيك فى موقفه من أبوى؟

فيقول لى:

ـ علاقة الأب بابنه علاقة غامضة على الرغم من وضوحها السطحى، أحيانا يتدفق منها الحنان وأحيانا تتجمد بالقسوة، عرجى هذا الذى تراه ما هو إلا عاهة صنعها أبى فى ساعة غضب، أما أخلاق الرجل الحقيقية فتقيم على ضوء علاقته بالآخرين . .

وطبعا لم أقتنع بتلك النظرية وقلت:

ـ إن أخلاق الرجل ـ أى رجل ـ وحدة لا تتجزأ.

على أن تلك الساعات السوداوية كانت تجيء كأحوال عابرة لا آراء ثابتة، وسرعان ما يعود إلى صفاء النفس والرؤية الواضحة، أما أزمة تلك الفترة الحقيقية فكانت أزمة جنس، أزمة المراهق المتشوف إلى القداسة ونزاعه الدائم مع غرائزه القوية، وعاودتنى كثيرا ذكريات السحارة والبنت التى باتت الآن مجهولة تماما، وتعجبت كثيرا كيف أن جدى يناقشنى فى كل خاطرة تخطر، على أنه يتجاهل المعركة الحقيقية الناشبة فى صدرى، وكان فى بيتنا ثلاث نساء. بالإضافة إلى بهجة العجوز ـ فى الحلقة الخامسة من أعمارهن، لسن جميلات ولا مغريات، ولكنهن لا يخلين من رمق يزكيهن عند مراهق مكبوت، وكنت أرى النساء فى الشارع فى ثيابهن المحتشمة غاية فى الإثارة، وكان النضال بين ضميرى وغريزتى لا يكف ولا يهدأ، غير أننى تغلبت على الإغراء بقوة تستحق الإعجاب، وكأن تشوفى لله فاق كل شيء وهزم الشيطان فى معاقله جميعا.

أجل، لاحظت بهجة نظراتى نحو زميلاتها فجزعت وتوسلت بمنزلة الأمومة التى احتلتها من نفسى لتصارحنى بمخاوفها:

ـ لا تعرّض نفسك للهوان، جدك يعتبر جميع ما فى البيت امتدادا لشخصه، والمساس بأى منها مساس بذاته المصونة، وقد نعمت حتى الآن برضاه ووجدته بلا شك نعمة تستحق الحمد عليها، ولكن لجدك جانبا آخر يسكنه الغضب فتجنبه وأنت خير من يفهم ذلك.

فتمتمت بذهول:

ـ أبى!

ـ أجل، وأنت مؤمن، وصلواتك عبادة حقيقية، لم لا تفكر فى الزواج وجدك كفيل بتزويجك من فتاة تحقق أحلامك وزيادة؟!

فقلت بدهشة:

ـ لم أفكر بذلك وأعتقد أن الوقت المناسب لم يحن بعد كما أننى أكره فكرة الزواج كبديل للخوف من الخطيئة!

ـ أنا لا أفهم أفكارك، ولكن إذا أردت مساعدة فإنى رهن إشارتك.

وقد علم محمد شكرون بذلك الحديث، وكان على علم بأزمتى ونضالى، وكان يعجب لها، وطالما قال لى:

ـ تعال معى إلى بيوت العوالم فثمة فرص فريدة، وما عليك إلا أن تغير ملابسك الدينية فى بيتى..

ضحكت طويلا، ورفضت أى فرصة ممنوحة بكبرياء واعتزاز بالنفس، وأسعدنى أن أتألم فى ذلك الطريق وأن أنتصر على ألمى، وكنت أقول لنفسى:

ـ طوبى لى، إنى أنتصر كل يوم مرة على الأقل على الشيطان، وإنى جدير حقّا بمستقبلى الطاهر..

وفكرت فى أمور جديدة لأول مرة، فسألت بهجة:

ـ متى ماتت جدتى؟

فترحمت عليها قائلة:

ـ منذ حوالى عشرين عاما.

ـ أكان لمأساة أبى دخل فى ذلك؟

ـ الأعمار بيد الله وحده.

ـ ولم لَمْ يتزوج جدى بعدها؟

ـ هذا شأنه.

وتساءلت: ترى هل كان لجدى حياته الجنسية الخاصة؟ وارتعدت لغرابة الفكرة وقلت لنفسى: إنه سيقرأ خواطرى فى عينى كالعادة

وسرعان ما تقع مأساة جديدة، وقلت لنفسى أيضا : إن جانبا من نفسى يتعقب جدى بالانتقام وإن حبى له ليس خالصا تماما، وإننى لا أريد أن أنسى تماما مأساة والدى، وآى ذلك أننى ما زلت ألح على بهجة حتى اعترفت لى بأن أمى كانت ابنة دلاّلة تتردد على بيتنا، وسألتها : إن كان عُرف عنها أو عنهما شىء من سوء، فأجابت بالنفى وقالت لى صراحة :

ـ جدك لا يعترف بالناس المجهولين!

فقلت بامتعاض واحتجاج :

ـ ولكن الناس جميعا إلا ما ندر مجهولون . .

إلا أنه يحلم بعالم من البشر الإلهيين على حد تعبيره، أفلم يفطن إلى قسوة حلمه؟

وقررت أن أصوم رجب وشعبان ورمضان كل عام، ومضت الحياة فى جد واجتهاد وطهارة، وكان جدى يتابعنى باهتمام وارتياح مغمغما :

ـ ما شاء الله العظيم!

٥

كنت أسير بصحبة محمد شكرون فى أطراف الدراسة عندما أقبلت علينا قافلة من الأغنام تقودها امرأتان. تنحينا جانبا لنوسع للقافلة، رأيت المرأتين، وهما أم وابنة غالبا، صورة واحدة متكررة، ترتدى جلبابا أسود، متمنطقة بزنار، حافية القدمين، و متلفعة بشال أسود، وبرقع فضفاض تطل من فوق حافته العينان، وباليد مغزل.

* * *

وانقطع عن الكلام مليا حتى سألته :

ـ ماذا حدث يا جعفر؟

فالتفت نحوى قائلا:

ـ إنى أتساءل أيضا عما حدث . .

ـ ماذا تعنى؟

ـ بكل إيجاز لقد نظرت إلى عينى الفتاة فاقتحمنى الجنون الكامل . . ، ولكن لندع مناقشة ذلك إلى حينه، سأصف لك الآن ما وقع، لقد شعرت بأننى مت وبأن شخصا جديدا يبعث فى مكانى، وسوف تصدق أنه شخص جديد بكل معنى الكلمة، لا علاقة له بالشخص الميت، شخص جديد ثمل، يفيض قلبه بالأشواق والقدرة الخارقة على التحدى والالتحام، وسمعت محمد شكرون يقول لى:

ـ متى تواصل السير؟

وراقبنى بحدة، ثم تمتم باسما:

ـ إنها راعية غنم!

فقلت وأنا ألهث:

ـ بل إنه القدر . .

ـ فيم تفكر؟

ـ لا بد من معرفة مقرها . .

ـ حسن، ولكن لا تنس العمامة فوق رأسك!

قوة أخرى غير إرادتى تسلمت زمامى، سرنا وراء القافلة، اخترقنا النحاسين فالحسينية، ثم رأيت العباسية فالوايلية، لم أشعر بتعب، لم أرحم عرج صاحبى، سرت بقوة الجنون والسكر وتفجرت فى قلبى ينابيع المغامرة بلا حدود، وتتابعت أقوال محمد شكرون وشكاياته:

ـ سامحك الله . .

ـ ماذا حل بك؟

ـ البنت منتبهة إلى متابعتك لها . .

ـ إنهم غجر وأفظع من الشياطين . .

ـ قل لى بالله ماذا تريد على وجه الدقة؟

أخيرا رأينا القافلة وهى تدخل معسكر عشش الترجمان وشعاع الشمس يتقلص من ساحتها الرهيبة لينطوى فى شفق المغيب، مودعا أكواخها المصفحة وأناسها المتوحشين وطابع البداوة والنفى الذى يفصل بينهم وبين المدينة، وتوقف محمد شكرون ممسكا بذراعى وهو يقول :

ـ لا خطوة بعد ذلك فليس ثمة مكان لغريب . .

وتأوه مستطردا :

ـ لقد دميت أقدامنا . .

فقلت من عالمى الوجدانى البعيد :

ـ لقد ودعتنى بنظرة حية قبل اختفائها . .

ـ مبارك عليك . .

ثم توسل إلىّ قائلا :

ـ لنستقل سوارس فى عودتنا .

ولم يفارقنى شكرون ليلتها فسهر معى حتى منتصف الليل فى البيت، وجعل يتأملنى طويلا وكأنه لا يصدق، وسألنى :

ـ ماذا دهاك؟

فقلت له بأسى :

ـ ما تراه بعينيك .

ـ لا أفهم . .

ـ ليكن، إنى مجنون بالبنت . .

ـ أيحدث ذلك بهذه السرعة؟

ـ لقد حدث.

ـ ولكنها راعية ومن بيئة شريرة.

ـ إنه القضاء لا مفر.

ومضى يفكر قائلا:

ـ كيف يمكن إغراؤها؟ هل لهن استعداد لذلك؟ كيف نعمل مع تجنب الفضائح؟ وما العمل إذا تحدانا المستحيل؟

فقلت بإصرار لا نهائى:

ـ بأى حال من الأحوال أريدها..

وجعلت أمضى الأصيل عند مشارف الدراسة، مع صديقى أو مع نفسى، جالسا على حجر، من حولى ترعى الشاة والماعز والجدى، على حجرى كتاب المنطق مفتوحا، وعيناى تسترقان النظر إليها وهى جالسة لصق أمها وهما تغزلان، وكان المكان شبه خال لا يمر به إلا المتشردون وهم راجعون إلى المقطم، وعندما تميل الشمس نحو المغيب تمضى القافلة فى رحلتها اليومية مخلفة فى قلبى كآبة وفراغا لا يملؤه شىء فأذهب إلى الجامع لأصلى المغرب ثم أحضر درس المنطق.

وقررت أن أخفى كوبا فى جيب قفطانى.

وعندما جمعنا الخلاء اقتربت من الأم وقدمت الكوب طالبا حليبا فوثبت مروانة ـ كما سمعت أمها تناديها ـ إلى ماعز وراحت تحلب لى اللبن ثم ردت إلىّ الكوب مغطى بالحباب فتناولته وأنا أقول لها:

ـ عاشت يداك يا مروانة..

فابتسمت لى عيناها على حين نظرت الأم نحوى بارتياب وأنا أشرب اللبن، ثم تمتمت:

ـ هنيئا!

فشكرتها، فقالت لى بلهجة ذات معنى :

ـ أنتم يا شيوخ رجال ربنا .

فقلت بامتنان :

ـ الحمد الله .

سعدت بإنشاء العلاقة وتبادل الحديث وشملتنى غبطة سابغة حتى لحظة الفراق .

ومن موقع المراقبة قال لى محمد شكرون :

ـ لقد تحريت بما فيه الكفاية، وأقول لك إن أولئك الناس مع كل شر إلا الشر الذى يسيل لعابك عليه . .

فقلت له باستهانة :

ـ سيخرج من القمم مارد لن تعرفه مهما ادعيت بأنك كنت له صديقا .

ولم يقدِّر ما فى قولى من ثورة، لم يعرف أننى أصبحت ملك الملوك، وأننى أفعل ما أشاء بغير حساب، وأننى سكران بفورة الجنون الأحمر .

وربط كوب اللبن بيننا برباط حريرى قاتل، ومن شدة نشاطها لمست أناملها وأنا أتناول الكوب، وقلت لها :

ـ أنت كريمة يا مروانة !

فحبكت الخمار حول رأسها وهى ترمقنى بشيطنة، فقلت وأنا أذوب فى كلامى :

ـ ما أجمل عينيك !

وقلت أيضا وهى تمضى :

ـ ما أجىء هنا إلا من أجلك !

وكفت الأم عن الغزل وقامت. تناولت حصاة من الأرض ورمتها بعيدا صوب الجبل. ورأتنى أنظر إليها متسائلا، فقالت:

ـ وسيلة حكيمة لصد الزواحف والحشرات..

فقلت بارتياب:

ـ الله خير حافظًا..

فقالت بحزم:

ـ ولكن علينا أن نخاطب الشر بلغته..

* * *

وضحك وقال لى:

ـ صدقنى فيما أقول، كله، وبلا تردد، لا تتأثر بمنظرى الراهن، إن من يرانى يؤمن بأننى ولدت فى مزبلة ولم أمارس إلا انفعالات القىء، ولكن ما فكرتك عن الحب؟

فقلت مباغتا بصعوبة السؤال:

ـ الحب هو الحب، إنى أصدق جميع ما يقال عنه..

ـ وتؤمن بأنه يصنع المعجزات والعجائب؟

ـ أجل، لست غرا، ولكن حدثنى عن حبك يا جعفر، عن نوعه، راعية غنم حافية الأقدام قد تشعل الدم..

ـ كان كذلك، نداء للدم، نداء صارخ دافع للحركة، مغر بالجنون والمهالك، يقتحم الأبواب والنوافذ ويرتكب الجرائم وينتحر..

فقلت بدهشة:

ـ ولكنك كنت وليا من أولياء الله الصالحين.

ـ لكى تعيش تجربتى تصور أنك فقدت الذاكرة فجأة، وأنك أصبحت شخصا جديدا.

ـ ولكن الفرد يتغير بالتدريج فيما أتصور.

ـ كلا . . . كلا . . . إنى أتغير من النقيض إلى النقيض . . فجأة . . !

ـ لا شك فى أنه يحدث فى الظلام أمور كثيرة بعيدة عن وعيك.

ـ الإنسان يخلق المنطق، ولكنه يتجاوزه فى حياته، والطبيعة يا عزيزى تستعمل الطفرة كما تستعمل التطور!

ـ هات ما عندك يا جعفر.

فواصل قائلا:

ـ وذات يوم دعانى جدى إلى مجلسه، سمح لى بالجلوس ثم سألنى:

ـ كيف حال دراستك؟

أدركت لتوى أنه دعانى لأمر آخر إذ إن شيوخى كانوا يبلغونه عن تقدمى الفريد أول فأول، وعلى ذلك أجبت بأننى عند حسن ظنه، فقال:

ـ ولكن الطريق طويل وهو ملىء بالمتاعب . .

فقلت بحماس ظاهرى فحسب:

ـ المؤمن لا يخشى الطريق . .

ـ قول حسن، ولكن الفعل الحسن أهم من القول الحسن.

ـ هذا حق.

وتريث لحظات، ثم قال:

ـ ثمة أمور تدعو للتأمل، وقد حلمت حلما، وعند اليقظة عقدت العزم على شىء . .

ـ وما الحلم يا جدى؟

ـ لا أهمية لذلك، والأحلام تُنسى بسرعة، ولكن بقى ما عقدت العزم عليه.

ـ أهو يتعلق بى يا جدى؟

ـ أجل، وسوف يسعدك..

ـ حقّا؟!

ـ قررت أن أزوجك من بنت الحلال.

ذهلت، صمت، قلت لنفسى: إن الرجل عالم بكل شىء، كيف غاب عنى أن جولة مسائية غريبة يقوم بها حفيد الراوى لاشك فى أنها تلفت الأنظار إليه وتثير التأويلات ثم يتطوع بإبلاغها إليه المتطوعون، إنه عالم بكل شىء ويحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

ـ ماذا بك يا بنى؟

ـ لم يخطر لى ذلك ببال.

ـ فليخطر إذن..

ـ ولكن..

ـ إن الشباب يمضى بلا زواج لأسباب قهرية وقد حباك الله بنعمته فما معنى أن تؤجل ما يعتبر نصف الدين؟

ـ دعنى أفكر فى الموضوع بعض الوقت!

ـ سأختار لك عروسا فريدة وسأترك الحكم لك!

رجعت إلى حجرتى هائجا فلم يغمض لى جفن حتى ترامى إلىّ أذان الفجر، شحنت بقوة جبارة وأردت أن أنهال على الجدران فأدكها دكا، انطلق المارد متحديا، صمم على نيل فتاته ولو على أنقاض الحى كله لا القصر وحده؛ وناجيت أبى وأمى طويلا، وثار غضبى على جدى بلا

حساب، إنه لا يريد أن يكفر عن جريرته وما زال غرامه عنيفا بالتسلط والقهر، وفى حومة الأفكار المتَضاربة نشب الحوار بينى وبين جدى، فى حلم أو فى هذيان الليل أو بين النوم واليقظة لا أذكر.

ـ جدى.. إنى أرفض.

ـ ترفض نعمتى؟

ـ أرفض القهر.

ـ ولو كان منى؟

ـ ولو كان!

ـ أنت عاق، تخون الجمال والنقاء، فى سبيل ماذا؟

ـ الحرية!

ـ راعية الغنم.

ـ الدم والتشرد والهواء النقى.

ـ إنه الجنون الذى يخرج به الممسوسون من بيتى العتيق.

ـ النعيم الحق فى الجنون.

ـ إنك ابن والديك.

ـ وإنى أعتز بذلك إلى الأبد.

ـ نصفك يود الانتقام منى.

ـ لا أريد أن أفكر فدعنى أفعل.

ـ والجبة والقفطان؟

ـ سأخلعهما من توى.

ـ إذن كفرت؟

ـ لا أريد الدين مهنة.

ـ ماذا تريد أن تفعل؟

- أريد أن أمارس الحب والجنون والقتل!

أعتقد أننى عبّرت بهذا الحوار عن الحال التى كنت أعانيها تعبيرا كاملا، وعندما أفضيت بأسرارى إلى محمد شكرون ذهل تماما ولم يصدق أذنيه، ولما وجد منى الجد كل الجد سألنى:

- هل ترفض حقّا ما عرضه جدك عليك من أجل مروانة؟

فأجبت بالإيجاب:

- أتترك البيت من أجل راعية الغنم؟

- نعم.

- ما معنى ذلك؟

- اعتبرنى مجنونا إذا شئت.

- ألا تخشى أن يحرمك ميراثك وتجد نفسك شحاذا؟

- هذا محتمل.

- لا تستحق امرأة تضحية بهذه الجسامة.

فهززت منكبى استهانة، فقال:

- أنا لا أفهمك.

- المسألة لا تتعلق بالفهم، إنها واقع.

- وما تفسيره؟ هل ثمة سر؟

- إنه جنون باهر وأنا مسحور به.

- صبرك، يمكن التوفيق.

- إنى أحتقر التوفيق.

- يمكن أن تبقى فى رعاية جدك وأن تواصل دراستك وأن تمارس حبك الجنونى..

- كلا.. كلا.. إنها أشياء متنافرة جدّا، وقد اخترت..

ـ اخترت ماذا؟

ـ سأهجر البيت والأزهر . .

ـ لا ضرورة لذلك .

ـ بل ضروري جداً، إنها حياة جديدة . . ، وإلا طردت من الاثنين . .

ـ عين أصابت هذا الشاب!

ـ لا بقاء في بيت جدي إلا لإنسان إلهي . . . أما الأزهر فإنني ما وددت مهنته قط . . والإيمان لا يحتاج إلى جميع تلك التعقيدات . .

ـ ليتك كنت تهجر ذلك لشيء أفضل . .

ـ المغامرة أفضل . . الجنون أفضل . .

فقال بإصرار :

ـ لن أفهمك ما حييت .

فقلت بسخرية :

ـ رغم حماقاتك يا شكرون فإنك لم تعرف الجنون بعد . .

ـ أيعني هذا أنك هجرت ماضيك كله بسبب الحب؟

ـ بل إنني بسبب الحب عرفت جنون المغامرة!

سلّم محمد شكرون بالأمر الواقع ، شعرت بأنه يؤمن حقّاً بأن المأساة لا تخلو من جنون حقيقي ، واضطر إلى أن يعدني بالمساعدة بجس نبض مروانة وأمها باعتبار أن العاشق يحتاج إلى سنيد كالمغني ، وبخاصة بعد أن أكدت له تحرياته أن مثل مروانة قد تقتل ، ولكنها لا ترضى بعلاقة غير شرعية ، ثم قال بامتعاض :

ـ وماذا عن مستقبلك؟ فحتى المغامرون الأحرار مضطرون إلى تناول لقمة؟

وأغرب شيء أننى لم أكن أوليت ذلك ما يستحقه من تفكير جاد، وقد خطر لى للحظة أن أدرس لغة عربية ودينا فى مدرسة أهلية، ولكننى سرعان ما نبذت الفكرة جانبا لتنافرها مع جو المغامرة المسحور، وأحللت فكرة أخرى مكانها، فقلت:

- أكوّن جوقة لإنشاد التواشيح النبوية؟!

- سيمر زمن طويل قبل أن تحيى ليلة ثم يظل نجاحك بعد ذلك موضع شك وعناء، والطريق الطبيعى أن تبدأ فردا فى جوقة وهو ما لا يناسبك بحال! فتفكرت مليا ثم قلت:

- أفضل أن أعمل فى تختك أنت..

- تختى؟!

- لم لا؟ صوتى أجمل من أى سنيد عندك..

- إنك ولى نعمتى ولكن...

- لا لكن من فضلك، ثم إنك تحيى حفلات فى الشهر الواحد لا تقل بحال عن ثلثه، ونجاحك مطرد..

وصمت محمد شكرون، فقلت بحماس:

- ولن تفتر همتى فى تكوين الجوقة الدينية الخاصة فى الوقت نفسه.

- هذا ضرورى واعتمد على صداقتى لسماسرة الحفلات الدينية، لا أصدق ما نتفق عليه فإنه يبدو خيالا، وما زلت مصرا على أنه يمكن معالجة الأمر بصورة أخرى.

فقلت بإصرار:

- لا رجوع إلى الوراء ولا خطوة واحدة، وسيكون لى رداءان، البدلة لتختك، والجبة والقفطان للجوقة النبوية، أليس ذلك ممتعا؟!

ونظر نحوى فى سكون الليل وسألنى:

ـ لأى درجة تصدقنى؟

ـ لى من العمر ما يجعلنى أصدق أى شىء.

ـ أريد درجة من التصديق أشد حرارة، كثيرون لم يصدقونى، تألمت لذلك وسعدت به، تألمت لأن العمل الفذ يحتاج إلى شهود، وسعدت لأن إقدامى مما يعز تصديقه، أريد ومن حقى أن أريد أن يعترف بى كإنسان غير عادى، إنسان لا يستطيع أى إنسان أن يهجر النعيم الذى كنت فيه بالبساطة التى هجرته بها..

ـ بدافع الحب وحده؟

ـ الحب لا يكفى؟! الحب هو الجنون خالقا!

ـ أكانت مروانة على ذلك القدر من الجمال؟

ـ ولكن ما الجمال؟ المسألة نداء يصيب مفتاحا كهربائيا..

ـ ألم ترغب أيضا فى حرمان جدك من وريثه الوحيد؟

ـ مأساة والدى لم تفارقنى، ولكن انطلاقتى كانت ملائكية لا تلوثها رغبة خفية أو ظاهرة فى الانتقام.

ـ ورد فعل للكبت العنيف الذى فرضته على نفسك بصفتك إنسانا إلهيا؟!

ـ أرفض هذا التفسير أيضا، قلت لك إنها كانت انطلاقة ملائكية، مثل أغنية الفجر، قدح الحب الشرارة فكشف ضوءها عن حلم يتجسد ويثوثب لتحطيم جدار القصر والانطلاق متحديا الجاه والقيود للتمرغ فى تراب الأم الخالدة، كما هجر بوذا قصره ذات يوم لغير ما سبب مقنع لأحد من الناس.. ويحدث ذلك فجأة، وليس التطور الذى يملأ دماغك إلا الترسيخ العملى للفجاءة المبدعة، وإليك مثالا حيا حدث هذه اللحظة فجأة، لقد قررت الآن ألا أكتب الالتماس..

ـ ماذا تعنى؟

ـ الالتماس بتقرير إعانة شهرية لى من وقف جدى!

ـ أهى عودة للتفكير فى قضية عقيمة؟

ـ لا قضية ولا التماس!

ـ ولكن. . !

ـ ولا لكن.

ـ فلنؤجل ذلك إلى حينه، واستمر الآن فى حكايتك من فضلك.

وقهقه كعادته وقال:

ـ وذات مساء زحف محمد شكرون وهو يعرج ـ وأنا أتبعه ـ نحو العربية العجوز فى مجلسها فنحّت مغزلها وقامت متوجسة، فقال لها:

ـ صاحبى يرغب فى الزواج من كريمتك على سنة الله ورسوله!

ذهلت المرأة، هرولت مروانة بعيدا، وعاد محمد شكرون يقول:

ـ ها نحن أولاء تحت أمرك.

وتمالكت المرأة انفعالاتها وقالت:

ـ لنا قوم نرجع إليهم.

وكان لهم قريب من بعيد غير محدد القرابة فكان علينا أن نقابله.

كان يوما عجيبا.

كنا أول غريبين يشقان سبيلهما فى عشش الترجمان نهارا دون أن يتعرضا للموت. حدقت فينا أعين شريرة باستطلاع ساخر وتحد، وتوقفت الحركة دقيقة، حركة تدريب القرود وجز الأغنام ووزن المخدرات وجلاء الأدوات المسروقة ودق الطبول.

وتجمع حولنا نفر من الغلمان وراحوا يحيون الشيخ جعفر هاتفين:

ومضينا إلى العجوز الجالس أمام كوخه وأم مروانة واقفة بين يديه . .
وتصافحنا وكان طاعنا فى السن حتى الموت، فقالت أم مروانة نيابة عنه :
ـ إنه يرحب بكما .
فقال العجوز يخاطبها بعد أن لكمها فى ظهرها :
ـ لأنك أنت توافقين عليك اللعنة . .
فقال محمد شكرون :
ـ صاحبى من أصل كريم .
فبصق العجوز قائلا :
ـ طظ !
فقال محمد شكرون محرجا :
ـ وهو يعمل . .
ولكن العجوز قاطعه :
ـ لا يهمنا العمل أيضا !
ـ أخلاقه . .
فقال :
فقاطعه العجوز :
ـ ولا تهمنا الأخلاق !
فقال شكرون وهو يتحلى بمزيد من الصبر :
ـ بكل إيجاز نريد كريمتكم على سنة الله ورسوله . فضحك العجوز عن فم خال تماما وقال :
ـ مع ألف سلامة . . تكلم عن المهر . .

ـ تكلم أنت، فأنت كبيرنا.

فانتفخ العجوز قائلا:

ـ عشرة جنيهات فى يدى هذه.

وبسط يده، فتحركت أم مروانة حركة غامضة فقطب العجوز قائلا:

ـ لنقرأ الفاتحة..

وانطلقت من حولنا الزغاريد.

لم يعلق محمد شكرون بكلمة احتراما لعواطفى. وقررت من ناحيتى أن أواجه جدى بالحقيقة كما يجدر بشاب بلغ رشده وأتم مرحلة لا بأس بها من تعلمه فاتخذت مجلسى على مقربة من أريكته فى السلاملك وكان يسبح فى همس وقطته الرومية تهر إلى يساره، وأعتقد أنه نشأ جو من التوقع والتحفز شارك كلانا فيه، أنا بما أضمر من نوايا وهو بفراسته التى يقرأ بها ما فى الصدور، وجاءنى سؤاله المألوف:

ـ كيف الحال؟

فأجبت وعقلى شارد:

ـ عال والحمد الله.

فقال بهدوء:

ـ ستعلن الخطوبة بعد ثلاثة أشهر عقب انقضاء رمضان!

صممت على تجربة قوتى الجديدة بلا تردد، فقلت:

ـ معذرة يا جدى لقد وقع اختيارى على زوجة أخرى.

فلم يبد عليه أى تأثر وتساءل:

ـ حقّا؟

ـ هى إرادة الله على كل حال.

ـ إذن هو حق ما ترامى إلىّ؟

فلم أنبس فعاد يتساءل :

ـ راعية غنم؟!

فأجبت ببساطة :

ـ أجل يا جدى .

قال ولعله تنهد :

ـ إنك راشد وأدرى بمصلحة نفسك .

فسألته باهتمام :

ـ هل أطمع فى نيل رضاك؟

فمضى يسبح فى هدوء، فسألته :

ـ هل ينعى ذلك أنه علىّ أن أغادر البيت؟

فلم يلتفت نحوى : إلى الأبد .

قمت فتناولت يده فلثمتها وذهبت .

وكان وداع بهجة أليما ودامعا، وقد اقترحت أن تطلب لى نقودا، ولكنى صارحتها بأن لى من المدخرات ما يجاوز مائة الجنيه، وجعلت تبكى وهى تقول :

ـ الأحزان تبدأ فى هذا البيت مع الزواج .

وهمست فى أذنى :

ـ صدقنى . . جدك تعيس الحظ . . إنه لا ينام من الليل إلا ساعة . .

فقلت لها صادقا :

ـ إنى أحبه وأرفضه!

وغادرت البيت الذى عشت فيه أربعة عشر عاما طاهرة .

وذهبت مع عروسى إلى شقة جديدة بالخرنفش اكتراها لى محمد شكرون وساعدنى على تجهيزها، مكونة من حجرتين وصالة، وبدت

مروانة فى ثوبها الجديد آية من الجمال والإثارة. ولعلى كنت أرى لونها الطبيعى لأول مرة بعد أن خلقها حمام العرس خلقا جديدا، لا أقول إنى سعدت بذلك، وأعترف بأن اللون النحاسى الغامق القديم كان أصبح جزءا لا يتجزأ من الصورة التى زلزلت أركان حياتى، على أن نداءها ظل مستبدا طاغيا وسيطر علىّ سيطرة كاملة حتى اعتبرت نفسى أسيرا فى يد قوة لا تعرف الرحمة ولا الهوادة، ومن ناحيتها كانت فاتنة بفطرتها كلسان من اللهب، ومعتزة بنفسها وبقومها تكاد تسبغ قداسة على التراب الذى منه جاءت كوردة برية، حتى حياؤها الأنثوى كان غشاء شفافا لا ضعفا متأصلا أو رخاوة طبيعية، ومنذ اللحظة الأولى شعرت بأننى حيال أنثى قوية لا عمر لها تتدفق منها الفتنة والسحر والتحدى، وأننى أستسلم فى رحابها كاشفا عن ضعفى بقوة وعنف، وأننى أجرى كمطارد أو مجنون فاقد الوعى والحذر، واشتهر أمرى بين صحبى الجدد فأطلقوا علىّ «الرجل السعيد» و«الرجل الضعيف السعيد» وانهالت علىّ التحذيرات والوصفات معا.

ولم ينسنى شهر العسل عملى الجديد فنشطت له بهمة عالية، ووجدتنى هيابا بعض الشىء وأنا أدس نفسى فى بيئة جديدة وأناس جدهم فى الحياة لهو ولعب، وكانوا يستقبلوننى هاتفين:

- أهلا بحفيد الراوى!

وهو نداء له مغزاه، تبعنى كظلى فى كل مكان أختلف إليه، تردد فى الخرنفش، فى تخت محمد شكرون، فى الجوقة التى تم الاتفاق على أن تعمل معى حين الحاجة، وأخذت أحفظ وأتدرب بسرعة استعدادا للتخت والجوقة معا، وفى شهر العسل نفسه اشتركت مع التخت فى إحياء حفل زفاف بالدرب الأحمر، ارتديت البدلة لأول مرة والطربوش حتى صاح محمد شكرون :

ـ تبارك الخلاق فيما خلق!

وارتبكت وأنا أخوض أمواج المدعوين والمتفرجين وكنت أحد اثنين في التخت لا يستعملان إلا حنجرتهما ويجلسان خاليي اليد من أي آلة، وقدم لي محمد شكرون قدح نبيذ قائلا:

ـ إنه ضروري جداً وإلا انحبس صوتك.

في أسبوع واحد عرفت النبيذ والمنزول، ورددت الغناء بقوة وانضباط وكنت الصوت الثاني في التخت ولا جدال وقد نفخت في السنيدة روحا جديدة هزت التخت بالجلجلة والطرب وهو يقدم:

يا ما أنت واحشني وروحي فيك

ولقينا استحسانا كبيرا، وضمن الاستحسان أصابتني غمزة من سكران فصاح: «يخلق من ظهر العالم فاسد» وضج المكان بالضحك حتى مال محمد شكرون نحوي وهمس:

ـ اضحك مع الضاحكين.

وقد فكرت فيما قال الرجل فيما بعد طويلا، الناس يتصورون أنني كنت شيخا طيبا، ثم فسدت فانقلبت سنيدا في تخت أغني وأتعاطى النبيذ والمنزول. كلا.. ليس الأمر كذلك، لقد غيّرت مهنتي هذا كل ما هنالك، استبدلت بمهنة التدريس أو الوعظ مهنة أخرى هي الغناء، أما روحي فقد ارتفعت درجات وقلبي لم يفسد ولم يتزعزع إيماني، وجدي نفسه هو القائل إن الزبال نفسه يستطيع أن يكون إنسانا إلهيا، ولعلّي كنت محمولا بتيار عواطفي الصاخب في ذلك الحين فلم أدرك أبعاد تجربتي كما أدركتها فيما بعد أو كما أدركها اليوم، ولكنني على رغم ذلك ثرت على قول السكران واعتدتها دعابة عربيدة وظالمة، على أي حال بدأت عملي الجديد بثقة ونجاح، ولكن كان عليّ أن أنتظر وقتا ليس بالقصير؛ لكي أنشد التواشيح النبوية كصاحب جوقة له وزنه، أما

سعادتى فقد غطت على النجاح وعلى كل شيء، سعادتى الزوجية، وكنت بها فخورا ، أنوه بأسرارها فى كافة المناسبات، وبفضائل الحياة الزوجية ومزاياها الطيبة، حتى ضُرب بى المثل، وفى غمرة السعادة لم أنظر إلى الحياة فى بيتى الصغير بعين ناقدة ولا حتى محايدة، واستقبلت أولى آيات الأمومة بما يشبه الوجد الدينى.

حقّا كانت توجد لحظات خائنة حتى فى أيام السعادة الخالصة . .

ولكن ما هى اللحظات الخائنة؟

هى اللحظة التى تنفصل فيها عن تيار حياتك فتقف على ربوة فوق الشاطئ لتراقبه بدهشة.

فى تلك اللحظة كنت أشعر بأن ثمة شخصا قد ضحك علىّ، قد جرعنى مقلبا . .

وأسأل نفسى عما حدث.

أو أنظر إلى مروانة بذهول وأجد رغبة طارئة للانتقام منها.

ما معنى ذلك؟

كأننى أمقتها فجأة وبلا مقدمات.

ولكنها لم تكن إلا لحظة عابرة، كتقلص عضلة طارئ، ثم يعود التيار إلى مجراه السعيد المبلل بأنفاس العشق المستعر.

وأعجب لطاقتى فى معاشرة الفوضى، فأنا لا أتذمر على حين مروانة لا تحسن تنظيف الشقة، ولا طهى الطعام، وتمضى حافية نصف عارية منتفشة الشعر، تتحدى الخيال وتناقر الهواء، وتسحبنى من يدى لزيارة أمها وقريبها العجوز فى معسكر الشياطين ليضحك المخرف ويقول لى:

ـ ألم يكن الأفضل أن تعمل إماما لجامع؟

أو يبارك بطن زوجتى قائلا للجنين:

ـ شرفنا وكن قاتلا، فقد ضقنا باللصوص والمهربين!

ويسخر من أصلي الكريم قائلا :

ـ مَنْ جدك الراوى؟ أنا جدك الحقيقى، واهبك هذه المرأة الجميلة التى تمتص قذائف غرائزك الشريرة . .

فأقول له :

ـ جدى من رجال الله . .

فيقهقه قائلا :

ـ نحن رجال الله حقًا، الله المنتقم الجبار خالق الجحيم والزلازل، انظر إلى هؤلاء (مشيرا إلى معسكر المتشردين) إنهم رجال الله، صورة منه فى جبروته وانتقامه . .

والتقيت فى تلك الأيام بجارة أمى فى بين الصورين، عرفتها ولم تعرفنى، اعترضت طريقها وقدمت لها نفسى، ذهلت ودعت لى طويلا، وتذكرت أننى لم أكن أعرف اسم أمى كما أن بهجة لم تكن تعرفه، كنت أناديها «أم» فتجيب حتى أعجزها الموت عن الإجابة، وسألت الجارة عن اسمها فقالت :

ـ ليرحمها الله . . كان اسمها سكينة!

وشعرت بإغراء فى طرح المزيد من الأسئلة عن أصلها وتاريخها، ولكننى أخمدته، وربما احتراما للذكرى، وشددت على يدها ومضيت فى سبيلى، هكذا عرفت اسم أمى مصادفة . .

وسوف أنجب من الذكور أربعة، وسوف تمضى الحياة بعد انطفاء شعلتها، وسوف تجىء أيام الجفاف والجفاء والوحشية . .

طالما سرنى أن يقال هذا الفتى الذى هجر قصر النعيم ينشد الحب والحرية . .

وطالما استعذبت موقف مروانة المحب من الطقاطيق التى أحفظها لتخت محمد شكرون بقدر ما رحمت موقفها الكاره من القصائد والتواشيح التى أعدها لجوقتى الخاصة . .

وطيلة الوقت كنت أقاوم الفقر بالعمل والنبيذ والمنزول وشعرت بأن المعركة تستغرقنى من الفجر حتى الفجر.

وتأوهت قائلا:

ـ أى عبودية؟!

وجاءت أيام الجفاف والجفاء والوحشية.

ها هى ذى مروانة قوية، متحدية، سليطة اللسان، طويلة اليد كأنما خلقت لتقاتل.

وقلت لها مرة:

ـ للرجل احترامه.

فقالت لى:

ـ وللمرأة احترامها.

ثم قالت بوحشية:

ـ لا يوجد رجال خارج عشش الترجمان..

فقلت محزونا:

ـ أهذا جزاء من أعد لك البيت والأثاث؟

فصاحت بى:

ـ إنى أكره رائحة البيوت!

وأوغلنا السير فى أيام الجفاف والجفاء والوحشية. وتابعنى محمد شكرون بأسى، وقال:

ـ إنى أخاف الحب الجنونى وأفضل الاعتدال.

فقلت بحزن لم يدرك مداه:

ـ إنى ضحية الشهوة العمياء.

ـ الحياة الزوجية تمر بحالات مرضية حتمية تحتاج إلى حكمة الأطباء.

فقلت بامتعاض :

ـ لقد دخلت منطقة اليأس !

ذلك أننى وجدت أن الشركة تتحول إلى معركة ، مضمرة حينا ومعلنة حينا ، وأن مروانة إذا تجردت من رمز الإثارة الجنونية فإنما تتمخض عن لا شىء ألبتة ، أو تتمخض عن ذئبة .

وهى إذا غضبت حطمت ما بين يديها ، مزقت ملابسى ، طوحت بكراسة الأغانى والتواشيح من النافذة ، التحمت معى فى عراك ، وأصيح بها :

ـ إنك أبغض إلىّ من الموت .

فتصيح بى :

ـ إنك أبغض من القيح .

وقد تمتد فترات البغضاء ، وقد تتسلل إليها الهدنة بفضل الأولاد غالبا ، وعند ذاك قد تشتعل انفعالات الرغبة من جديد ، اشتعالات خاطفة ، تعيد ذكرى الأحلام من بعيد ، أجل من بعيد .

* * *

وسألته باهتمام :

ـ ولكن ماذا أفسد حياتك الزوجية ؟

ـ ألم أوضح ذلك فى سياق الحكاية؟

ـ كلا فيما أعتقد ، ما زلت فى حاجة إلى تحديد أسباب واضحة . .

ـ إن الذى ربطنى بها حال جنونية ، فلما زالت وجدتنى مع امرأة لا أعرفها ولا أجد مبررا لبقائها معى ، ولا شك فى أن سلوكى العام نم عن مشاعرى الدفينة فأثارها من ناحية أخرى .

فقلت :

ـ تزول حال الجنون ولكن يبقى الأولاد . .

ـ الأولاد أطالوا عمر زواجى ، ولكنهم لم يؤمنوه ضد الخواء ، مروانة مجرد إثارة ، ليست امرأة ، لا هى ربة بيت ، ولا هى أم ، ولا هى سيدة بالمعنى ، وصفاتها الجوهرية خليقة بأن تخلق منها رجلا ، بل قاطع طريق . .

ـ وهى ألم تحبك؟

ـ لا أظن ، ربما فورة جنونية عابرة ، أو مغامرة استطلاعية . لم أكن أمثل الرجل الذى يمكن أن تحلم به ، لقد جمع زواجنا بين مغامرين وكان عليه أن يموت بمجرد أن تتحول المغامرة إلى روتين . . ، أظن الأمر واضحا؟

ـ أجل ، شكرا . .

ـ وكان لى أحلامى الخفية ، كنت أحلم بالهروب من الواقع ، من البيت ، أحلم بالتوحد فحتى أولادى كانوا يختفون من رؤيا الحلم ، ولكن إلى أين؟ وكان عملى لا يترك لى مجالا للنظر إلى فوق ، فأوساط المنشدين لا قمة لهم يتطلعون إليها ، إلى ذلك فالله لم يهبنى القناعة والرضا بالمقسوم .

والأهم من ذلك أننى لم أكن أحلم وحدى ، أجل ، كانت مروانة تحلم أيضا ، وتمسكت بالغضب عقب مشاجرة ، وسدت الأبواب فى وجه الصلح ، وتحدتنى بنظرة باردة وهى تقول :

ـ يجب أن نعيد النظر فى حياتنا . .

ولمست فى نبرتها تصميما حيا فانقبض صدرى وتمتمت :

ـ حياتنا؟

ـ أقول لك صراحة إنه من الظلم أن نكلف هذا البيت بأن يجمعنا أكثر من ذلك .

فتابعت أصوات الأولاد المتلاحمة بإشفاق وقلت :

ـ كل الأزواج يفعلون ذلك .

فقالت بهدوء مخيف :

ـ ولكننى أريد أن أذهب . .

فسألتها ببلاهة :

ـ إلى أين؟

ـ إلى أهلى!

تماسكت رغم حنقى وتساءلت :

ـ ألا تعجبك الحياة فى هذا البيت؟

فأجابت بقوة :

ـ كلا ، أنت تتوهم أنك صاحب فضل ، هذا هو نقصك!

ـ أظننى ضحيت بالكثير .

ـ إنى أولى الضحايا!

ـ اسمعى . .

ولكننى أمسكت تجنبا للشجار ، فصاحت :

ـ لقد كرهت هذه الحياة حتى الموت!

فنفخت قائلا :

ـ الأولاد . . الأولاد . .

ـ من حقى أن آخذهم معى .

ـ لكى ينشئوا فى عشش الترجمان؟

ـ لكى ينشئوا رجالا!

ـ إنك لمجنونة!

ـ أنت المجنون وأقسم على ذلك، لا عاقل يعيش من حنجرته كالنساء!

ـ لا أمل يرجى من مناقشتك.

ـ دعنى أذهب.

ـ ولكن عليك أن تتركى لى الأولاد.

ـ ماذا تفعل بهم؟ إنك تستيقظ من نومك قبيل العصر، ولا ترجع إلى بيتك إلا مع الفجر أو بعده، وعلى حال لا يعلم بها إلا الله، فكيف يعيشون؟ هل تعنى حقّاً ما تقول؟

فشعرت بالقهر وقلت:

ـ لذلك يجب أن يبقى هذا البيت من أجلهم..

ـ إنى أرفض ذلك..

ولم ينته الحوار بحسم الموضوع.

فكّرت فى الأولاد طويلا، أيقنت أنه لا حياة لهم معى، وأن علىّ أن أتحلى بالصبر من أجلهم مهما كلفنى ذلك، غير أن مروانة حسمت الأمر بطريقتها الخاصة فرجعت عند فجر يوم لأجد البيت خاليا لا يتردد فيه نفس، وذهبت من توى إلى عشش الترجمان فبلغتها مع الصباح الباكر.

وجاءتنى أم مروانة بوجه متجهم وقالت لى:

ـ اذهب بسلام وافعل ما يفعله الرجال ولو مرة!

قلت لها:

ـ الأولاد.

قالت بازدراء:

ـ إنهم أولادنا.

وجاء العجوز فى ثلة من الرجال المفترسين وقال:

ـ أنت رجل خائب فارجع إلى بيتك .

وهمهم الرجال بألفاظ مبهمة فلم يغب عنى الخطر المحدق بى . وعاد العجوز يقول :

ـ طلق ، أعطها حقها كاملا ، وإذا كان الشرع يعطيك حقوقا الآن أو مستقبلا فإنى أنصحك بأن تتنازل عنها صونا لحياتك ، ارجع قبل أن تطلع الشمس على وجهك فقد أقدم على شر كبير إذا رأيتك فى ضوء الشمس .

وذهبت من توى لأطلق . .

وأجلت التفكير فى المشكلة لحين بلوغ البكرى السن التى أستحقه فيها ، تأجيل أو هروب إذا شئت ، كنت على يقين من أننى لن أطالب بأولادى بجدية حقة ، معنى ذلك من ناحية أن أخاصم قوما يتخرج فى معسكرهم عتاة مجرمى القاهرة ، ومعناه من ناحية أخرى أن أعيدهم إلى حياة لا أمل لأى قدر من الرعاية فيها ، فهؤلاء الأولاد من حفدة الراوى قد كُتب عليهم الضياع حيثما كانوا ، ولن تكتب لهم النجاة إلا إذا كتبت للمجتمع كله وبصورة حاسمة ، هكذا ذهبت مروانة طاوية معها قصة الحب والجنون والخيبة ، وقصة الجفاف والبغض ، لم يبق منها إلا ذكرى الشهوة المذهلة ، والقوة المتحدية ، والعجرفة الصلبة ، وهى مثل العاصفة مخيفة وضارة ومثيرة للإعجاب . وبضياع الأولاد تسلل الأسى إلى أعماق نفسى ليقيم فى حجرة الأحزان ملتحما بذكريات أمى وأبى .

ولم يكن ممكنا أن أواصل الحياة بهوادة كأن لم يقع شىء .

وكان محمد شكرون يتابعنى بحذر وإشفاق ، فسألنى ذات يوم :

ـ حتى متى تمضى فى ترديد الأغانى وتعاطى النبيذ والمنزول؟

مع وجود مروانة والأولاد كان ثمة حياة متكاملة أيّا تكون ، أما الآن فالسؤال يبدو معقولا ، وقلت له وأنا لا أعنى ما أقول :

ـ حتى الموت!

فقال جادا غاية الجد:

ـ آن لك أن ترجع إلى جدك..

قلت:

ـ لقد انتهى الشيخ جعفر الراوى..

ـ يمكن أن يبدأ من جديد، علينا أن نحاول.

ـ إنى أرفض المحاولة.

ـ عن كبرياء؟

ـ بل عن تسليم بالواقع الحى.

ـ أى واقع يا رجل؟

ـ إنه لا يرضينى، ولكنى رفضت المهنة الدينية رفضا لا رجوع فيه، الحياة التى رسمها جدى لى مرفوضة تماما، وهو لن يقبلنى ـ إذا قبلنى ـ إلا بشرط الرجوع إليها..

ـ لعله يمنحك حريتك الشخصية؟

ـ كلا، إنك لا تعرفه كما أعرفه، وإنى أرفض أن أعرض نفسى لتجربة ذليلة.

فقال بإخلاص لا يداخلنى فيه شك:

ـ إنك صديق عزيز ومن واجبى أن أصارحك بأنك تمارس حياة لا تليق بك، فلا أنت مطرب ولا أنت ملحن، ويجب أن تفكر فى مستقبلك بجدية أكثر..

ـ هذا ممكن بعيدا عن جدى!

ـ أراك غير سعيد الآن..

ـ ربما، ولكننى قمت بمغامرة جنونية سأظل فخوراً بها ما حييت،

وإنى فخور أيضا بأننى أتكيف مع أى مستوى للحياة دون تذمر أو ضعف، تجدنى طافحا بالبشر والقوة سواء عشت حياة الأعيان أو حياة الصعاليك، وهأنذا أتمسك بالصعلكة وأرفض محاولة الرجوع إلى حياة القصر، أرفض أن أكون شيخا محترما وزوجا نبيلا وممارسا للطقوس والتقاليد الرفعية؛ لا لأننى أختار ذلك بإرادتى الحرة، ولكن احتراما لرؤيا جدى وطمعا فى تركته. .

ـ وماذا عن مستقبلك؟

ـ سأفكر جديا فى دراسة الموسيقى والتلحين عند الشيخ طاهر البندقى إذ لا يمكن أن تمضى الحياة بلا طموح. .

كانت مروانة رمزا للحياة الماضية، كما كانت العذر الثابت لتقبل حياة عادية بلا طموح، فلما ذهبت وجدت نفسى عاريا.

وكان علىّ أن أعيد النظر فى حياتى.

وفى تلك الفترة القلقة من الحياة عرفت هدى صديق. .

٦

كان محمد شكرون يحيى حفلا فى حديقة لبتون، وفى الاستراحة دعى مع أفراد تخته إلى مقابلة هدى هانم صديق فى بنوارها، وكانت تنتظرنا وعلى شفتيها ابتسامة مليئة بالثقة وعلى مقربة منها تجلس سيدة شديدة السمرة بدا من تأدبها أنها وصيفة.

راعنى أول ما راعنى بهاء منظرها، وأناقتها المحتشمة، واعتزازها بنفسها الذى لا يجاوز حدود الأدب، وهالة من الجاذبية الرصينة، أما

جمالها الأنثوى فيتركز فى عينيها السوداوين واستدارة وجهها، وكانت على وجه اليقين فى الحلقة الرابعة.

ترك منظرها فى نفسى أجمل الأثر، ووقفت بين الزملاء الكهول مزهوا ببدلة جديدة وبصحة وشباب وقامة فارعة.

دعتنا للجلوس وأمرت لنا بالمرطبات، وقالت موجهة الخطاب لمحمد شكرون:

- صوتك عذب وتختك ممتاز، إنى من أسرة تعشق الأصوات الجميلة.

فلهج محمد شكرون بالشكر ونوه بذكرى المغفور له والدها الذى يحتفظ له أهل الفن بأجملِ الذكريات. قال:

- طالما سمعت أستاذى الشيخ طاهر البندقى يقول عن قصره إنه كان معقل الموسيقى الشرقية.

فابتسمت الهانم فى رضا، والتقت عينانا أكثر من مرة، فقال محمد شكرون مشيرا إلىّ فى مباهاة:

- زميلى جعفر حفيد سيد الراوى.

فتساءلت باهتمام:

- حقّا؟!

- إنه يهيم معنا حبا فى الفن..

- جميل، ولكن هل يرضى الراوى الكبير عن ذلك؟

فأجبت:

- ندر أن يرضى جد عن حفيد!

ونظرت السيدة نحو محمد شكرون قائلة:

- سوف نتقابل عما قريب.

انصرفنا سعداء، وفسر لى محمد شكرون قولها قائلا :

ـ هذا يعنى أننا سندعى قريبا لإحياء حفل فى بيتها . .

وقال لى باهتمام :

ـ إنها من آل صديق، كريمة الرجل العظيم، أرملة واسعة الثراء والثقافة . .

وصمت قليلا ليزن كلامه، ثم قال :

ـ أعتقد أنها مالت إليك . .

انبعث فى نفسى طرب، وسألته :

ـ ألك خبرة بتأويل نظرات النساء؟

ـ أجل . لمحتها أكثر من مرة فى أثناء الغناء وهى تنظر نحوك حتى قبل أن تعرف نسبك . .

ـ ليصدق حدسك يا صديقى . .

فقال محذرا :

ـ ولكنها سيدة محترمة .

فقلت محتجا :

ـ يا للأسف!

وفكرت فيها مليا، إنها شىء نفيس بلا شك، ولا يقلل من قيمتها أنها تكبرنى على الأقل بعشرسنوات، بل زادها ذلك ملاحة فى نظرى. أما الجنون الذى اجتاحنى ذات يوم فيبدو أنه لا يتكرر.

وقال لى محمد شكرون :

ـ يا لها من فرصة!

ـ ماذا تقصد؟

ـ امرأة ممتازة كالقشدة . .

ـ هبنى لم أحبها؟

ـ أهذا ممكن؟ ألم تشم رائحتها المسكرة؟

فضحكت عاليا، وكان محمد شكرون قد أحب راقصة وتزوج منها ووفق في حياته الزوجية غاية التوفيق.

* * *

وذهبنا إلى بيت آل صديق بالحلمية احتفالا بختان طفل، ذكرنى السلاملك والحديقة بقصر جدى، ولكن الحديقة كانت أصغر كما أن سور البيت كان قصيرا لا يحجبه عن العالمين، وأقيم لنا سرادق مكشوف فى الحديقة التى عبقت بشذا زهر البرتقال مما يدل على أن الوقت كان ربيعا.

وغنى محمد شكرون بانبساط حقيقى ورددنا الغناء بحماس غير عادى، وارتفع صوتى وأنا أردد:

كان قلبى عليك عليك قلبى

وعقب الوصلة الثانية اندلع النبيذ فى رأسى وتسلطن المنزول فجلست تحت شجرة برتقال فى إعياء..

وجاءت هدى هانم صديق تتفقد أحوالنا وتجاملنا فقمت لها وأنا أكاد أترنح، فتمتمت:

ـ أنت فى حال!

فقلت ممتنا:

ـ هذا ما يفعله بى السرور.

وأمرت لى بقدح ليمون بالصودا، ثم قالت:

ـ تعجبنى روح المغامرة!

فأدركت أنها تشير إلى صعلكتى فى تخت محمد شكرون فقلت:

ـ إنى أقرر مصيرى بإرادتى الحرة.

فابتسمت قائلة:

ـ المغامرة الحقة فى رأس الإنسان!

ـ ماذا تعنين يا سيدتى؟

فتجاهلت السؤال وقالت:

ـ ترامت إلىّ أنباء مثيرة عن خلافك مع جدك.

فقلت باستسلام:

ـ ها هى ذى شهرة ضلالى تذيع بين الصفوة.

فابتسمت ابتسامة جذابة وذهبت.

وشعرت بأن باب حياة جديدة ينفتح لى رويدا.

وعقب السهرة مضى بى محمد شكرون إلى مقهى باب الخلق، قال لى بجدية:

ـ علينا أن نتدبر أمرنا.

فتساءلت متخابثا:

ـ أى أمر أيها البلبل؟

ـ لا تتغاب، عرفت من وصيفتها أنهم عرفوا عنك كل شىء..

ـ كل شىء؟!

ـ السؤال له مغزاه الكبير.

ـ والجواب له عواقبه الوخيمة!

ـ على رغم كل شىء..

وحدق فىّ باهتمام، ثم واصل:

ـ على رغم كل شىء فأنت مدعو إلى لقاء فى حديقة لبتون، إنى مكلف بإبلاغك..

فذهلت وتمتمت :

ـ هذا يفوق تصورى!

ـ ولكنه الواقع دون زيادة .

ـ أجل .

ـ علينا أن نتفق على خطة .

ـ ولكنك لم تسألنى عن عواطفى؟

ـ لا أظنها عدائية!

ـ طبعا .

ـ يكفى هذا ، وفى اعتقادى أن الهانم وقعت كما وقعت أنت ذات يوم .

ـ لا تبالغ .

ـ خبرنى ألا يسعدك أن تتزوج بها؟

ـ أنت تتخيل أنها تفكر فى الزواج؟

ـ إنها ترفض العلاقات غير المشروعة . .

ـ تتزوج بصعلوك؟!

ـ إنى أعرف قصة أمير هجر قصره ليتزوج بصعلوكة .

فضحكت ، فسألنى :

ـ ماذا عن قلبك؟

ـ إنى معجب بها ، بشخصيتها وجمالها ، لا شك فى أن الارتباط بها يسعدنى .

ـ هذا هو الحب ، أو هو نوع من الحب ، أو هو استعداد طيب للحب .

ـ ليكن .

ـ إذن فعليك أن تبدى احتراما لكرامتها . .

ـ مزيدا من الشرح من فضلك.

ـ لقـد بدأت هى خطوات ثابتة، وها هى ذى تدعـوك للقـاء، فـهل تذهب لتنتظر كالبنت أن تفاتحك هى بحبها؟ كلا.. يجب أن تكون أنت البادئ، احتراما لكرامتها كما قلت..

ـ أترى ذلك؟

ـ المسألة ذوق أولا وأخيرا، لا تنس التضحيات المتوقعة من ناحيتها، حقًا إنها سيدة نفسها، وأغنى الأسرة، ولكن حتما ستتمزق أواصر قربى وعلاقات أسرية بسبب الزواج، لا شك فى ذلك.. وإنها لشجاعة لأنها ستصمد فى وجه ذلك كله..

ـ لولا أننى مررت بتجربة مشابهة لما صدقت الواقع..

ـ بلى، ولكنك مررت بنفس التجربة، ولا تنس أنها تريدك وأنت مقطوع السبب بالراوى، والزوج السابق لمروانة وأبو أربعـة أبناء بعشش الترجمان، إنه المستحيل عندما يصير ممكنا..

وفكرت فى الأمر من شتى جوانبه بعد أن وجدت من عقلى وقلبى اقتناعا به، فقلت:

ـ إذا وقع هذا الزواج المذهل فسأجد نفسى مضطرا إلى التخلى عن العمل فى التخت؟

ـ هذا واجب لا شك فيه.

ـ ولكنى كيف أرضى بألا يكون لى عمل إلا زوج الهانم؟!

فقال بثقة:

ـ سيكون لك عمل، لا أدرى الآن ماذا يكون؟ ولكن توجد أعمال كثيرة تحتاج إلى رأس المال والمجهود البشرى. وأنت تملك هذا المجهود؟

ثم وكأنه يشجعنى:

ـ هاك مغامرة جديدة أيها المغامر الأعظم .

فقلت بفتور :

ـ المغامرة الحقة استجابة لنداء مجنون ، أما هذه الخطوة فتتحقق فى رحاب الروية وتحسب بالتفكير والمنطق أنتقل بها من حال إلى حال .

ـ إلى حال أفضل !

ليكن ، إنى أجرى كالعادة وراء الجديد المثير ، معى قدرتى العجيبة على التكيف والاستهانة بالصعاب ، ألست أعيش وكأننى نسيت أبنائى الأربعة رغم أن جرح القلب لا يريد أن يندمل ؟ !

* * *

وذهبت إلى لقاء هدى فى الموعد المضروب بحديقة لبتون .

أقبلت عليها بشجاعة وثبات وثقة بالنفس فذابت الفوارق وتم لقاء بين رجل وامرأة .

جلسنا حول منضدة تحت سقيفة على حين جلست «أم حسين» الوصيفة غير قريب ، ورغم عظمتها الذاتية اعتراها شىء من الارتياب فقالت :

ـ أرجو ألا أكون أزعجتك بدعوتى ؟

فقلت بثقة :

ـ كونى على يقين من أنها جاءت محققة لأحلامى .

فتساءلت برقة أنثوية :

ـ حقًا ؟

ـ كنت أتمناها ولا أدرى كيف أحققها .

ـ حقًا ؟ . . ولكن . . ولكن لماذا ؟

ـ هذا حديث يطول، ولكن يحسن بى أن أقنع بالاستماع . .

فقالت بلهفة:

ـ لا أهمية لذلك، لماذا كنت تتمناها؟

فقلت بصوت دافئ:

ـ كما يجدر برجل أحبك من كل قلبه.

فأسبلت جفنيها موردة الخدين والتفت بالصمت فى جو من القبول والرضا والسعادة.

ـ أجل من كل قلبى . .

تذكرت الموقف فيما بعد فلم أجد فيه ما يستحق الخجل، كان عقلى وقلبى مقتنعين بها. كنت مرحبا تماما بالارتباط بها وبلا أدنى طمع فى مالها، ومن ناحية أخرى فإن حبها لى ـ وهو مؤكد ـ يقتضى ذلك الاعتراف من ناحيتى تحية لكرامتها، فضلا عن ذلك كله فإننى لم أكذب أو لم أكذب بالقدر الذى يجعلنى كذابا.

وناقشنا مستقبلنا بكل صراحة، قلت:

ـ لن يتصل ما انقطع من علاقة مع جدى . .

وقلت أيضا:

ـ قد لا يحرمنى ميراثى كله . .

ثم قلت بوضوح:

ـ سأكون تعيسا لو عشت بلا عمل . .

فقالت بهدوء باسم:

ـ هذه الهموم لا تخلق عقبة حقيقية فى طريق الحب . . ، أما جدك والميراث فلا يهمنى، وأما العمل فإنى أعلم أن الرجل لا يعيش بلا عمل . .

ثم وهى تضحك :
ـ ولكن هل تعتبر عملك فى التخت عملا حقيقيا؟
ـ كان حركة فى مغامرة أكبر ، هذا كل ما هنالك . .
ـ أوافقك كل الموافقة .
ولقد فكرت فى حبنا طويلا .

من ناحيتى صادفت سيدة جميلة ، كريمة الأصل ، مثقفة ، عاقلة رصينة ، واعدة بمعاشرة سعيدة ، فملت إليها كما ينبغى لى وأحببت فكرة الارتباط بها .

أما من ناحيتها فكيف يمكن تبرير هذا الحب؟ إنى ضائع ، طريد ، شبه عاطل ، شبه جاهل ، لا مستقبل لى ، فكيف يمكن تبرير هذا الحب؟

لكنها كانت هى فى الواقع التى تحب حبا حقيقيا ، حبا بلا مبرر ، فوق التبريرات والأفكار ، ولعل هذا الحب لا يخلو من رغبة فى انتشالى من الضياع وإعادة خلقى من جديد ، فكما توجد فى الحب سادية وماسوشية توجد كذلك أحيانا أمومة ورغبة حميمة فى الإنقاذ .

هذه أفكار عن الحب الذى ربطنى بهدى فانتهى بعقد قراننا بعد أن مزق أواصر أسرتها .

لم أكن وقتذاك أفهمه بهذا الوضوح الذى يتبدى لى به اليوم ، أما فى حينه فقد فسرته التفسير الذى يرضى شبابى وغرورى ويعوضنى عن الإهانة التى لحقتنى من جراء هجر مروانة لى .

وودعت محمد شكرون وزملائى من أفراد التخت . كما ودعت أفراد فرقتى الدينية وكانوا متطوعين يعملون مع أكثر من منشد ثانوى تبعا لظروف العمل ، ودُعى الجميع إلى حفل زفافى الذى أحياه محمد شكرون ، وانبسطنا غاية الانبساط وكأننا نودع عهد النزق ونصفيه .

وقلت لمحمد شكرون :

ـ لن يفرق بيننا شىء .

فاغرورقت عيناه وهو يقول :

ـ معاذ الله يا أعز الناس . .

وتم الاحتفال فى بيت الحلمية ـ بيت هدى ـ فلم يشهده من أسرتها أحد، واقتصر على الجارات، وأمل محمد شكرون أن يعلن جدى رضاه على نحو ما، خطاب أو هدية أو باقة ورد، ولكن لم نلق من ناحيته إلا الصمت .

وكان محمد شكرون قد زاره لمناسبة عيد الهجرة وقال له وهو يقبّل يده :

ـ فُرض علىّ أن أنهى إلى فضيلتكم أنباء حسنة عن جعفر .

فتجاهل جدى قوله تماما، فقال محمد شكرون :

ـ إنه يبدأ حياة جديدة مع سليلة الشرف هدى هانم صديق .

ولكنه واصل تجاهله وفتح موضوعا جديدا لا صلة له بى .

غير أن محمد شكرون قال لى :

ـ لقد لمست رغم ذلك تأثره، مثل تقبض يده على المسبحة عندما جاء ذكرك، وعندما ترزق بمولود فاذهب به إليه ليباركه . .

ولكننى لم أكن أهتم برضا جدى، ولم أكن أخلو من انفعالات حنق عليه .

استقبلت شهر العسل الثانى فى حياتى، الأيام الهنيئة التى تمضى فى رحاب العاطفة الخالصة والحب المتكامل، ينعم فيها الزوجان بعطلة سعيدة قبل أن يرجعا إلى الحياة ليتغلغلا فى أعماقها أكثر .

وجدتنى على رغمى أقارن بين مروانة وهدى .

امرأتان مختلفتان جدّا، مروانة عبقرية فى لعبة الجسد، تُرجع الرجل

إلى عهد الفطرة، أما هدى فترجع الجسد إلى مستوى القلب، ورغم أننى لم أحترق إلا أذنى شعرت بطمأنينة ورسوخ ودوام، ورغم مشاعرى الفياضة وحنانى المتدفق فقد افتقدت جحيم مروانة الأبدى.

وفى توقيت رائع قالت لى هدى:

ـ أود ألا تبقى يوما أكثر بلا عمل..

فقبّلتها امتنانا، فقالت بحذر:

ـ وحتى إدارة أملاكى لا تعتبر عملا مقنعا ولا هى ترضى طموحى..

فتساءلت برقة:

ـ إذن لك طموح؟

ـ ألا تحب أن تكمل دراستك الأزهرية؟

ـ كلا.

ـ لماذا وجهك جدك تلك الوجهة؟

ـ إنه ذو تفكير خاص وسوف أحدثك يوما عن رأيه فى الإنسان الإلهى.

ـ سأصارحك بما تفكر فيه، يجب أن تدرس فى بيتك.

ـ دراسة نظامية؟

ـ نعم، حتى البكالوريا، ثم تتخصص فى دراسة عليا، مثل الحقوق مثلا، وتعمل محاميا ذات يوم!

ـ يلزمنى عشر سنوات.

ـ لم لا؟.. التعلم فى ذاته عمل، وأنت فى الخامسة والعشرين وستجد فيها ميزة لاستيعاب الدراسة.

ففرحت بالفكرة وقلت:

ـ إنى أحب التعلم، ولن يهمنى مافاتنى من عمر، ثم إننى أريد عملا لا وظيفة بالمعنى التقليدى.

وسرعان ما بدأت بعزم جديد.

خرجت من عصر البطالة المقنعة والبطالة الحقيقية، وغطى التعلم على إحساسى بأننى زوج بلا عمل وبخاصة أننى لم أعترف بإدارة الأملاك كعمل حقيقى فهى لم تكن تعنى أكثر من تحصيل إيجارات والإشراف على إجراء بعض الترميمات والتجديدات أو توكيل بعض المحامين عند الضرورة.

وحققت تقدما مذهلا واستعنت أحيانا ببعض المدرسين.

وفى أوقات الراحة كنا ـ أنا وهدى ـ نختلف إلى المسرح أو صالات الطرب فهى مغرمة بذلك كله.

وكنت أشرب رغم تأففها فتقول لى برجاء:

ـ اشرب، ولكن لا تسكر..

أما المنزول فقد أخذت علىّ عهدا بألا أقربه، وكلما رأتنى جالسا مع محمد شكرون ذكرتنى بالعهد، ولكننى نبذته بإرادة قوية، وعبرت الفترة الحرجة بعزم صادق حتى ضحك محمد شكرون وقال لى:

ـ إنك شيطان فى تكيفك مع العربدة، ملاك فى تكيفك مع الاستقامة..

فقلت له:

ـ إنى مصمم على أن أكون شيئا.

مارست حياة رائعة، استعادت من ناحية سعادتى فى أسطورة أمى، كما استعادت من ناحية أخرى النقاء الذى نعمت به فى بيت جدى، ولكن تفشى فيها القلق المنبعث من رغبة حادة فى تحقيق الذات.

أريد أن أكون شيئا، ولكن ما عسى أن يكون هذا الشيء؟ القانونى الضليع؟ أم المحامى الناجح؟

الحق أنى فتنت بمواد الدراسة المتنوعة، واستوعبتها بمقدرة شخص ناضج، وانجذبت لها بأقوى مما انجذبت إلى علوم الدين، وكنت أحفظ المقرر وأفيض عنه فيما يهمنى من فروع المعرفة، فقرأت كثيرا فى التاريخ والفلسفة والنفس والاجتماع، ومضيت أمتلئ بحب الحقيقة.

* * *

وقهقه عاليا ثم قال لى:

ـ تصور الرحلة من أحلام العفاريت إلى حب الحقيقة! . . ما رأيك؟

فقلت:

ـ رحلة عظيمة . .

أعجبنى بصفة خاصة المنهج العلمى الذى يتحقق به أكبر قدر من الدقة والموضوعية والنزاهة، هل نستطيع أن نفكر بنفس الأسلوب فى سائر شئون الحياة؟ لنعرف المجتمع والوطن والدين والسياسة بنفس الدقة والنزاهة الموضوعية؟

وكانت هدى تساعدنى، فهى مثقفة، حاصلة على شهادة مدرسة أجنبية، درست مبادئ العلوم والرياضة والآداب واللغات كما درست العربية على يد مدرس خصوصى، وهى غاية فى الذكاء والاستيعاب، وقد ساعدتنى أكثر مما ساعدنى أى مدرس خصوصى. وكانت تقول لى:

ـ الشهادة لا تهم فى ذاتها، ولكنها الوسيلة الوحيدة المعترف بها للعمل، ثم إنها تضفى على الدراسة جدية أكثر . .

ولم تفتر همتها فى مساعدتى حتى بعد أن تغير مزاجها العام بالحمل والوحم.

جمعنا رغم فارق السن والعلم حب يزداد مع الأيام رسوخا وهو بمأمن من النزوات وردود الفعل العنيفة . .

لقد انتقلت من الفوضى والمخدرات إلى حياة زوجية نقية وتحصيل للمعرفة بلا حدود، فى نظام دقيق أفقدنى الكثير من مظاهر الحرية السطحية، ولكنه فتح لى أبواب الحرية المضيئة التى يسمو بها الإنسان على ذاته بالوعى، الوعى الذى يسعد به الإنسان الحر حتى وإن أبصر بقوة أكثر مأساة الحياة الخافية .

* * *

وهنا قاطعته قائلا :

ـ حدثنى عن تجربتك مع الحقيقة والحرية والمأساة .

فقال ضاحكا :

ـ إلى مَنْ توجه كلامك؟ إنك فى الواقع تخاطب إنسانا لا وجود له، لم يبقَ منه إلا الخرابة التى تجالسك الآن فى مقهى ودود بالباب الأخضر، لقد مات، لقد دفنت أكثر من شخص عاشوا فى جسدى متتابعين ولم يبق إلا هذه الخرابة .

وضحك مرة أخرى، ثم واصل :

ـ ولكنها خرابة غنية بالآثار على أى حال .

وتنحنح ثم قال :

ـ لقد عشقت العقل وقدسته فأحببت تبعا لذلك الحقيقة، العقل هو ما يعمل بالمنطق والملاحظة والتجربة ليصل إلى حكم نقى تماما مما يخلّ بالمنطق والملاحظة والتجربة، وهو ما أسميته بالحقيقة .

وهذا العقل يعتبر مخلوقا حديثا نسبيا إذا قيس بالغرائز والعواطف، فالذى يربط الإنسان بالحياة غريزة، والذى يربطه بالبقاء غريزة، والذى

يربطه بالتكاثر غريزة، ودور العقل فى كل أولئك هو دور الخادم الذكى..

حسن، كيف يمكن أن ينقلب الوضع؟

أى أن يقرر العقل أولا ثم يستغل الغرائز لخدمته.

هل يمكن أن يقتنع فرد بضرورة فيقرر قتل نفسه؟ إن الذين يقتلون بدافع من غرائزهم لا حصر لهم، ولكن لم يقتل أحد بدافع من تفكيره الخالص النزيه النقى، إذن فقد عشقت العقل وحلمت طيلة الوقت بسيادته المطلقة باعتباره أشرف هدية إلهية لنا، أحلم بألا يكون لنا من محرك إلا العقل، ولا هدف إلا العقل، ولا سلوك إلا من وحى العقل، أحلم بحياة عقلية خالصة يستوى العقل فيها على عرش السيادة على حين تستكن الغرائز على أرض الطاعة والعبودية، حلمت بأن نشطب من قاموسنا جملا مثل: «أعرف بقلبى» أو «ألهمتنى عواطفى» أو «التعبير الوجدانى للحياة»، وصببت غضبى على حجم الشعور واللاشعور، وجبل فرويد المطمور تحت الماء إلا قمته، إذ إن المسألة ليست مسألة حجم، ولكنها مسألة القيمة أولا وأخيرا، أردت لقمة الإنسان ـ عقله ـ أن تحكم وأن تسيطر، حتى فى شئون الغذاء والجنس، والحب نفسه أى قيمة له إذا لم يقتنع به العقل تماما؟ الحب الأعمى سيظل أعمى ويتمخض بعد الإشباع عن خواء مكررا مأساتى مع مروانة، لذلك أتمنى أن يلعب العقل دوره فى حياتنا الحميمة كما يلعبه فى المعمل، وبنفس اليقظة والنزاهة والموضوعية، ويجب بالتالى أن تتغير أغانينا وأشواقنا وأحلامنا.

ولا أزعم أننى استطعت أن أرتفع إلى هذا المستوى، بل لعل عجزى كان عنصرا مهما فى المأساة، كما أننى لا أدعو إلى تجاهل الغرائز أو الاستهانة بها، ولكن أتشوق إلى تجنب آثارها المدمرة على الحقيقة، تصور أن نقيم أنفسنا دون خضوع للأنانية، أن نقيم أوطاننا بلا تأثر بما

ندعوه الوطنية، وبصفة عامة أصبح الإنسان العاقل حلمى كما كان الإنسان الإلهى من قبل..

قلت له:

ـ هذه الصورة العقلية للعالم صورها أناس فى كتبهم فى صورة مخيفة..

ـ أعلم ذلك، لأنهم عالجوها بقلوب رومانتيكية مريضة وسخيفة، ولكنى أومن بأن العقل سيُغنى الإنسان ذات يوم عن غرائزه وعواطفه فتصبح جميعا مثل الزائدة الدودية.

ولكن كيف انقلبت هذا الانقلاب الخطير من النقيض إلى النقيض..؟

ـ كما قلت لك من قبل إنى أتحرك فى الحياة بالطفرة، لقد اكتشفت عالم العقل فجأة ففُتنت به، وأيقنت أننى كنت أغامر فى خواء، وأنى مدعو الآن حقّا للمغامرة فى عالم الفكر، هذه هى المغامرة الحقة..

فسألته باهتمام:

ـ وماذا عن الحرية؟

ـ مثل المغامرة، تمارسها أحيانا كمتعة للغرائز كما استمتعت بمروانة والنبيذ والمنزول، هى عبودية متنكرة فى لباس حر، الحرية الحقيقية وعى بالعقل ورسالته وأهدافه وتحديد الوسائل بحرية الإرادة وتنظيمها التنظيم الدقيق الذى يجريها مجرى القيود، فهى حرية فى لباس عبودية، وجرت حياتى على هذا النحو فى رحاب بيت المنيل، فثمة ساعات للمذاكرة، وساعات للقراءة الحرة، وساعات للمناقشة والنزهة والحب، على طريق طويل رفعت على ساريته راية العقل..

وهنا قلت له:

ـ هلا حدثتنى الآن عن المأساة؟

فنفخ وهو يقول:

ـ انتظر قليلا، فثمة مأساة خاصة، ولكنى أود أن أعرض عليك رؤياى عن مأساة عامة أولا، هى مأساة الإنسان العاقل، فقبل خلق العقل كان الإنسان منسجما مع ذاته وحياته، حياة صراع قاسية، ولكن يبدو ألا حيلة له فيها، مثله مثل أى حيوان آخر، فلما أن وُهب العقل، وشرع يخلق الحضارة، حمل أمانة جديدة، مسئولية لا مفر منها، وفى الوقت نفسه هو غير أهل لتحملها، بدأ يدرك النظرة الشاملة، وأن حياته على الأرض هى حياة رجل واحد رغم التناقض الظاهرى، ولكنه كان ومازال يمر بفترة انتقال تتواجد فيها الغرائز والعقل معا، فما يقول به العقل تعارضه الغرائز، وما يزال النصر مقررا حتى اليوم للغرائز، على الأقل فى الحياة العامة، لم يظفر العقل بالسيادة المطلقة إلا فى العلم، فيما عدا ذلك فهو يخضع للغرائز، حتى ثمار العلم نفسه تلتهمها الغرائز، وعلى حين يحتفظ العقل بلغته الخاصة فى مجال البحث فاللغة التى تستجيب لها الملايين ما تزال هى لغة العواطف والغرائز، أغانى الجنس والوطن والعنصرية والأحلام السخيفة والأضاليل، هذه هى المأساة العامة، ولن تنقشع سحبها الحمراء إلا حين يعلو صوت العقل وتتراجع الغرائز نحو الذبول والفناء . .

أما مأساتى الخاصة فنشأت من الصراع بين عقلى وبين إيمانى الراسخ بالله.

واعترضنى السؤال، كيف تصون إيمانك إذا أردت أن تجعل من العقل هاديك ومرشدك؟!

تزعزعت ثقتى بالإيمان الخالص كما تزعزعت فى لغة القلب .

وعلى العقل أن يحل بقوته هذه المشكلة .

والقول بأنه لم يخلق لذلك اعتراف بالعجز ليس إلا ، واقتراح بديل له نسميه القلب أو البداهة اعتراف آخر بالإفلاس .

* * *

ـ وماذا قال لك عقلك؟

ـ عجز تماما عن إدراكه أو تصوره ، ولكنه لم يجد مفرا من افتراض وجوده ، وهذه هى المأساة ، وإذا قرر أناس أن المشكلة مفتعلة ، وأنه يمكن أن نعيش دون التفكير فيها ، فقد كل شىء معناه مهما خلقنا له من معنى بقوة الخيال والإرادة والشجاعة ، وإنى لأحسد الذين يعيشون عيشة كبيرة ويموتون راضين بلا إله . .

وكاشفت هدى بهمومى ، وهى مؤمنة إيمانا بلغ من قوته أنها لم تبال يوما بالصلاة أو الصوم ، فقالت لى :

ـ لا يمكن تقبل الكون بغيره ، ألا ترى إلى عمليات الخلق المتواصلة تحت أعيننا فى عوالم النبات والحيوان والإنسان؟ . . فلا يمكن الشك فى قوة الخلق . .

قلت لها :

ـ أريد علاقة حميمة واقتناعا لا مفر منه مثل ١+١=٢ .

فقالت هدى :

ـ نحن نتكلم عن القلب كنبع للإيمان ، ولكن تذكر أن الله لم يعبده إلا الإنسان العاقل ، فالعقل فى الواقع هو أساس الإيمان ، ولكن عجزه النسبى عن إدراكه ـ مع حرصه عليه ـ جعله يرجع الإيمان به إلى عضو آخر هروبا من التناقض .

فقلت لها :

ـ لقد أدرك الإنسان الحياة والموت والخوف فافترض عقله فرضا لينقذ الأمل، وحتى موسى نفسه أراد أن يرى الله!

* * *

عند ذاك سألته :

ـ ماذا عن إيمانك اليوم يا جعفر؟

فطوح برأسه إلى الوراء مرسلا بصره الضعيف نحو جدول النجوم الجارى بين مئذنة الحسين من جهة، وأسطح البيوت العتيقة من جهة أخرى، وتمتم :

ـ إنى عاجز عن الكفر بالله!

* * *

ثم واصل حديثه قائلا :

ـ تقدمت فى الدراسة، أحرزت النجاح بعد النجاح، اتسعت مداركى، تنوعت ثقافتى، أنجبت أربعة ذكور، عشت فترة تُعتبر من أغنى وأسعد فترات حياتى.

وكان محمد شكرون هو الذى يوصل النفقة الشرعية إلى أم مروانة. وعندما بلغ ابنى الأكبر السن التى أستحقه فيها قررت أن أسترده، وخاطبت فى ذلك هدى فلم تمانع والحق يقال، ولكن تبين لى أن مروانة تزوجت وأنها رحلت هى والأولاد إلى إحدى الواحات، بل قيل إنها رحلت إلى ليبيا، واشتد حزنى طويلا . .

ولم تهن صداقتى بمحمد شكرون، كنا نصلى الجمعة معا فى جامع الحسين، ثم نتناول الغداء فى الحلمية، وقد اقتصر إسلام شكرون على صلاة الجمعة والامتناع عن الخمر فى رمضان، وكان يؤكد لى أن

الفنانين أمثاله سيحاسبون حسابا ملطفا تراعى فيه ظروف حياتهم ومتطلبات مهنتهم، وكان نجاحه كمطرب من الدرجة الثانية قد تأكد، كما أن ألحانه الشعبية ذاعت وطُبعت فى أسطوانات ناجحة، وقد انتقل هو وأسرته إلى روض الفرج، ولكنه لم ينجب ذرية.

وقد ظل صديقى الوحيد حتى تعرفت على زملاء من خان جعفر ممن سبقونى فى التعليم وعملوا محامين ومدرسين، وقد أفدت منهم فى دراستى، ولم يقف أثرهم عند هذا الحد كما سوف ترى . . .

وسعدت بالأبناء أكثر من أى شيء آخر، كانوا آيات فى الجمال والصحة والنضارة، وكان البكرى صورة طبق الأصل من جده الراوى.

أما جدى نفسه فما عرفت عنه إلا اليسير مما كان يبلغنى عن طريق محمد شكرون.

طعن الشيخ فى السن، اعتكف فى بيته بصفة شبه دائمة عدا الخروج لصلاة الجمعة، وخصص ليلة واحدة لاستقبال الأصدقاء والمريدين، وأحيانا تستغرقه الشيخوخة فيُخيّل إلى من يعاشره أنه نسى همومه الماضية والراهنة، فبت أشك فى أن أبقى مجرد ذكرى فى روحه.

وتتابع النجاح والتفوق والسنون حتى نلت درجة الليسانس فى الحقوق.

وأتمت هدى نعمتها علىّ ففتحت لى مكتبا للمحاماة فى ميدان باب الخلق، وأثثته بمكتبة غنية وحجرة استقبال فاخرة لا يوجدان عادة إلا فى مكاتب كبار المحامين!

هكذا بدأت مرحلة جديدة من الحياة.

٧

كان وكيل المكتب هو محور النشاط فيه، فهو سمسار قضايا صغيرة تليق بمحام مبتدئ، وأنا أعمل فى الواقع كتابع له وفى نطاق نشاطه.

ولكن مكتبى صار ملتقى للأصدقاء الذين اتخذت منهم مرشدين فى دراستى القانونية، وكانوا فى الأصل أقران طريق من بعيد، وفى ذلك الملتقى الدائم تم الغزو السياسى لروحى . .

أود أن أقول لك إننى لم أكن مقطوع الصلة بالسياسة كما قد تظن. ففى بيت جدى كان يزوره فيمن يزورونه قوم من رجال السياسة، وكانوا جميعا ذوى طابع واحد، فهم يمجدون الصفوة التى يجب أن تحكم لخير الصفوة والرعاع والوطن.

وكان الحديث يدور كثيرا حول الدستور، لا باعتباره أساس الحكم للشعب، ولكن باعتباره وثيقة تمنحهم شرعية الحكم وتؤكد ذاتهم فى مواجهة الحاكم، وكأن الميدان لا يشغله إلا الحاكم والصفوة.

وكانوا يستحوذون على إعجابى بفخامة منظرهم وشواربهم الكثة ولحاهم المهذبة، وكانوا يتحاورون بهدوء وتؤدة، ويتكلمون كثيرا عن العلم والتعليم والبعثات وتجديد الفكر الدينى، ولم يخفوا احتقارهم للغوغاء وحكم الغوغاء، وأكدوا على حاجة الشعب إلى التربية الطويلة والتوعية المتواصلة حتى يحق له قدر من المشاركة المتواضعة فى الحياة السياسية.

وسمعت جدى يتساءل مرة:

ـ إذن فالسياسة فى نظرهم مثل التصوف مضنون بها على غير أهلها؟
وجاء الجواب بالإيجاب، فتساءل جدى:
ـ ومن يرعى مصالح الغوغاء؟
وكان الجواب:
ـ نحن أصحاب المصالح الحقيقية، فنحن أهل الزراعة والتجارة والصناعة، أما الغوغاء فحاجتها لا تعدو حرفة للرزق وبعض الخدمات..

وملت فى ذلك الوقت إلى الاقتناع بتلك النظرية، والتسليم بها كوسيلة ناجعة لانتظام الأمور، وحمدت الله على انتمائى فى النهاية إلى الصفوة لا الغوغاء.

وقد مرت بنا أيام مثيرة، تعالى فيها اسم الشعب حتى ملأ الفضاء، وتدفقت أمواج المظاهرات من الغوغاء كالطوفان، فراقبتها من فوق السطح بذهول وسرور.

بيد أننى لم أنفعل بالسياسة بقوة ملحوظة قط، وآمنت بأنه يمكن أن أبلو الحياة حلوها ومرها من غير أن أطرق للسياسة بابا.

* * *

فى مكتبى بميدان باب الخلق غزتنى السياسة بعنف لأول مرة، وعلى غير توقع.

اصطرعت فى حجرة مكتبى أفكار الليبرالية والاشتراكية والشيوعية والفوضوية والسلفية الدينية والفاشستية. وجدتنى فى دوامة صاخبة دار بها رأسى، وعملا بمبدئى فى تقديس العقل نزعت إليه أسأله الرشد وسط ذلك الطوفان.

وذات يوم سألنى الأستاذ «سعد كبير» ونحن بصدد استعراض

المذاهب، وسوف أقتصر على ذكر اسمه لخطورة الدور الذى لعبه فى حياتى ولتفاهة أثر الآخرين. سألنى:

ـ ما أنت؟

فقلت بعد تردد:

ـ لا شىء.

فقال بحنق وكان شديد الحساسية والعصبية رغم ذكائه وشمول ثقافته:

ـ إنه الموت..

ـ ولكنى دارس مجتهد ممن يقدسون العقل.

ـ وهل يتم للعقل مضمونه دون أن يبدى رأيه فى نظام الحكم البشرى؟

ـ ولكن.. ولكن السياسة مصالح.

ـ المصالح تهدى الرجل العادى إلى حزبه، ولكن العقل يستطيع بنوره أن يميز بين الحق والباطل..

فتساءلت مبتسما:

ـ أين توجهنى مصالحى فيما تظن؟

ـ ولكنك بالعقل تستطيع أن تتجاوز موقفك..

ـ على أى حال يجب أن أعطى مهلة أطول للتفكير.

وأفضيت بهمومى إلى هدى باعتبارها الصديق الأول الذى لا أخفى عنه شيئا، فقالت بلا تردد:

ـ ألاحظ أن السياسة مفسدة للعقل.

فقلت لها وكأنما أعلن عما يضطرم فى أعماقى:

ـ ذلك يتوقف على العقل نفسه..

فقالت لى بإيمان:

- فى السياسة يجد العقل نفسه فى محنة..

- ربما، ولكن لن يكون الحل فى الهرب.

الحق أن التفكير أصبح جزءا لا يتجزأ من حياتى، وما سمعته فى مكتبى قد تحدانى بعنف، فرحت أتساءل عن معنى ذلك كله، ورغم عواطف الصداقة المتبادلة فإننى لم أشك فى أن بعضهم ينظر إلى «وضعى الطبقى» نظرة عدائية أصيلة، وبالتبعية جعلت - لأول مرة - أنظر إلى هذا الوضع باعتباره مثار نزاع سياسى اجتماعى، كأنما استيقظت فجأة لأجد نفسى مستلقيا فوق فوهة بركان.

أجل، فإننى بصفتى حفيد الراوى أنتمى إلى الطبقة الإقطاعية، وعليه فمصلحتى تتفق مع حكم الصفوة، ولعلها لا تتناقض بحدة مع السلفية الدينية، ولكنى لا أتفق مع الليبرالية الشعبية، وأما الشيوعيون والاشتراكيون فهم أعدائى الطبيعيون، مثل عداوة القط والفأر، هكذا فكرت، ثم تساءلت: هل يتيسر لى رغم ذلك أن أحكم العقل بنزاهة بين هذه المذاهب؟ أو تخوننى العواطف فأستخدمه كعبد ذكى؟

بوسعى أن أوثر السلامة بتجنب السياسة، ولكننى آمنت بأن ذلك لا يتفق بحال مع احترام العقل وتقديسه.

السياسة هى الحياة.

ولم ينقطع الحوار بينى وبين «سعد كبير» فقد وجدت فى موقفه التحدى الحقيقى الذى يواجهنى بكل صلابة.

قلت له مرة:

- السياسة عالم رحيب، مفاتنه موزعة على جميع المذاهب!

فتقلص وجهه الأسمر، دقيق القسمات، وقال:

- مغفور لك ترددك فلابد للفكرة من مهلة حضانة.

ـ صبرك، إنى أجد فى الصفوة نبلا وثقافة وعراقة تاريخية.

ـ ممكن فى نظام اجتماعى عادل أن يرتفع كافة الأفراد إلى مرتبة الصفوة..

فتفكرت مليا ثم قلت:

ـ وفى الليبرالية حرية وقيم وحقوق الإنسان آية فى الجمال؟

ـ استغل ذلك كله لخدمة طبقة معينة.

فقلت بالإخلاص نفسه:

ـ وفى الشيوعية عدالة كاملة تجد المذاهب البشرية فى مناخها تفتحها وازدهارها..

ـ لعل هذا أقل ما يقال فيها!

ـ وفى الدين مزايا متوازنة لا تعد ولا تحصى.

ففقد أعصابه هاتفا:

ـ اللعنة!

فقلت دون مبالاة بعصبيته:

ـ لابد من الحقيقة ولو طال التخبط..

وكانت هدى فى الحقيقة الليبرالية أصيلة ترى فى النظام الإنجليزى مثلها الأعلى، وكانت تتابع تأملاتى باهتمام مشوب بالقلق حتى سألتها:

ـ لم تقلقين يا هدى؟

فقالت لى بصراحة:

ـ التفكير فى السياسة قد يتبع بنشاط سياسى وهو أمر لا يخلو من خطورة.

فقلت لها متنهدا:

ـ الأمان جميل، ولكن فى الحياة أشياء أهم من الأمان . .

ـ لذلك أشعر أحيانا بأن بيتى السعيد أصبح مهددا .

فقبّلتها وأنا أقول :

ـ كونى شجاعة كعهدى بك دائما . .

ـ أصبحت الموضة هذه الأيام أن يؤمن الشباب بالشيوعية . .

ـ ولكنى أفكر يا عزيزتى فلا تهمنى الموضة بحال من الأحوال .

وواليت الدراسة والتفكير .

* * *

وهنا قهقه عاليا بصوت أزعج النائمين والهائمين فى الحارة التاريخية فسألته :

ـ ماذا يضحكك؟

ـ سأعترف لك بسر لم أبح به لإنسان، ولا لزوجتى الصديقة .

ـ حقّا؟!

ـ خطر لى ذات مرة أنه توجد أوجه شبه بين حياة النبى وحياتى!

وتريث قليلا، ولكنى لم أعلق فواصل حديثه :

ـ فقد توفى والدى وأنا دون الوعى وتوفيت أمى وأنا لم أكد أجاوز الخامسة من عمرى فكفلنى جدى، ثم تصورت خروجى من قصر جدى نوعا من الهجرة .

ـ ولكن النبى لم يهاجر من أجل المغامرة .

ـ كلا . . كلا . . إنه تشابه وليس تطابقا . . ثم جاء زواجى من سيدة ذات حسب ونسب تكبرنى فى العمر، وكيف وجدت فى المناخ الذى هيأته لى فرصة طيبة للدراسة والتفكير، تأملت ذلك فخطر لى أننى سأكون صاحب رسالة أيضا . .

فتساءلت ضاحكا :

ـ رسالة دينية؟

ـ لتكن رسالة من نوع جديد، ولكن سرعان ما فتنتنى الفكرة فبت أسيرا لها . . وواليت الدراسة والتفكير .

وكنت أحذر نفسى دائما من خدع الغرائز والعواطف لأنقى تفكيرى من كل شائبة .

ووصلت إلى أولى النتائج ، وهى أن نظامنا الاجتماعى غير معقول ، ظالم ، وأنه مسئول عن أدوائنا من الفقر والجهل والمرض ، وأننى لست من الصفوة كما توهمت كثيرا ، ولكننى فرد من عصابة . واحتجت هدى على هذا الوصف ونوهت بشرف أجدادها ، ولكننى أخذت فى تحليل أسباب الثراء من الهبات والانتهازية والاستغلال والعسف والقوة حتى اقتنعت بأنه لا يوجد ثراء مشروع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . .

وشجعنى سعد كبير قائلا :

ـ هذا اتجاه طيب يعد بخاتمة طيبة ، ولكن عليك أن تبدأ بالمادية الجدلية والمادية التاريخية . .

فقلت بثقة :

ـ إنى أقف موقفا واحدا من جميع الفلسفات ، والفلسفة الماركسية ليست إلا فلسفة من الفلسفات فلماذا تتحول إلى عقيدة؟ ولماذا تفرض نفسها بالقوة والدكتاتورية؟

ـ ليست فلسفة من الفلسفات ، ولكنها أنزلت من سماء التأمل النظرى لتطبق على حياة الناس ، ولتعطى للبشرية أملا جديدا ، فهى تستحق أن تكون عقيدة . .

فقلت متململا :

ـ الجزم بالمادية ليس أقوى فى شرعة العقل من الجزم بالله . .

فقال بازدراء:

ـ ما زلت مثاليا!

فهتفت بغضب:

ـ لا ترم بالصفات الغريبة والتزم بالمناقشة الموضوعية.

فرجع إلى الهدوء وقال:

ـ ادرس، يلزمك مزيدا من الدراسة.

فقلت:

ـ ولكننى غير مقتنع بالنظرية، على حين أننى أرى العدالة الاجتماعية بديهية لا تحتاج إلى نظرية.

وانقطعت زمنا للدراسة والتفكير.

وصار صدرى معتركا لصراع كالجحيم.

فى ذلك الوقت لم أستمتع بصداقة زوجتى إلا قليلا، ولم أهنأ بملاعبة أبنائى إلا خطفا، ولاحت لعينى فكرة الرسالة كقوة واعدة ومسيطرة، ومتواضعة فى الوقت نفسه لأننى نذرت نفسى لإنقاذ البشرية فى مصر فحسب!

وكنت أفكر وأعاود التفكير، وأوجه إلى نفسى التحذير تلو التحذير من أن ينزلق تفكيرى فى مزالق العاطفة أو العقائد الموروثة.

ولكى تتضح لى الأمور قررت أن أسجل أفكارى على الورق.

فسألته باهتمام:

ـ وفعلت؟

ـ نعم.

ـ هل طبعتها فى كتاب؟

ـ كلا، سبقتنى الأحداث.

ـ أتذكر خلاصتها؟

قال وهو يضحك:

ـ عرضت تاريخا موجزا للمذاهب السياسية والاجتماعية، من الإقطاع حتى الشيوعية، ثم عرضت مشروعى الذى يقوم على أسس ثلاثة: أساس فلسفى، مذهب اجتماعى، أسلوب فى الحكم. أما الأساس الفلسفى فمتروك لاجتهاد المريد، له أن يعتنق المادية والروحية أو حتي الصوفية، والأساس الاجتماعى شيوعى فى جوهره يقوم على الملكية العامة وإلغاء الملكية الخاصة والتوريث والمساواة الكاملة وإلغاء أى نوع للاستغلال وأن يكون مثله الأعلى فى التعامل «من كلّ على قدر طاقته ولكلّ على قدر حاجته»، أما أسلوب الحكم فديمقراطى يقوم على تعدد الأحزاب وفصل السلطات وضمان الحريات كافة ـ عدا حرية الملكية ـ والقيم الإنسانية، وبصفة عامة يمكن أن تقول إن نظامى هو الوريث الشرعى للإسلام والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية.

وأعطيت نسخة من المخطوط للأستاذ سعد كبير وأنا أقول:

ـ هاك رأيى..

فتناوله بدهشة وهو يتمتم:

ـ حقّا؟!

فقلت بإصرار:

ـ ولن تخيفنى نعوتك المشهورة، برجوازى.. تصالحى.. تجميعى، فمن حقى أن أنشئ مذهبا جديدا إذا لم أقتنع بالمذاهب القائمة..

فلاحت فى عينيه نظرة ارتياب، وقال:

ـ بشرط أن تنشئ حقّا لا أن تلفق.

فقلت غاضبا:

ـ جميع المذاهب أخذ وعطاء.

وقرأ سعد كبير المخطوط فى مكتبى حتى فرغ منه فى حوالى الساعتين أو أكثر، ثم تنهد طويلا وتمتم:

ـ لا فائدة!

فانتظرت متوثبا فعاد يتمتم وكأنما يحادث نفسه:

ـ سمك لبن تمر هندى!

فقلت له:

ـ أفصح.

فقال بعصبية:

ـ تلفيق.. أحلام يقظة.. خيال.. تجميع ما لا يجتمع.. لا شىء..

ـ أهذا هو رأيك النهائى؟

ـ ماذا تتوقع؟

ـ أتوقع أن تقتنع برأيى.

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم نكوِّن جمعية.. هيئة.. حزبا..

فضحك ضحكة باردة وتمتم:

ـ يا للخسارة!

فقلت محتدا:

ـ إنكم مسلوبو الإرادة والتفكير!

فقال بجدية تامة:

ـ أنت تعلم على الأقل أننا جادون، وأننا نحمل رءوسنا على أكفنا، وأننا نؤمن بالإنسان!

ـ إنى أؤمن بالإنسان أكثر منك، لا أصدق أن مؤمنا حقًا بالإنسان يمكن أن يقتنع بنظام دكتاتورى، وإنى جاد أيضا، وعلى استعداد لحمل رأسى على كفى . .

ـ ماذا تنوى أن تفعل؟

ـ سأكوّن جمعية أو حزبا . .

وقام سعد كبير وهو يقول بفتور:

ـ لنا رجعة ورجعة ورجعة . .

وقبل أن أشرع فى الدعوة إلى تكوين الجمعية شاورت زوجتى فى الأمر، فانزعجت جداً، وكانت قد قرأت المخطوط بعناية، وقالت:

ـ إنك قانونى وتعلم أن دستور البلاد يعتبر الشيوعية جريمة.

فقلت:

ـ الشيوعية شىء ومذهبى شىء آخر . .

ـ إنك تدعو إلى نظام اجتماعى شيوعى وهذا هو ما يهم القانون وواضعيه . .

ـ يمكن أن أغير صياغة البند الثانى فإنى أجد مثلا أن كلمة الاشتراكية مقبولة، ثم إننى مؤمن بالله رغم أننى لا أريد فرض الإيمان على أحد، وأخيرا فإننى مستمسك بالنظام الديمقراطى كما يمارس فى الغرب، ألا يعد كل ذلك الشبهة عنى؟

ـ لا أظن يا عزيزى، فإنى أراك فى الواقع شيوعيا قحًا فى الأمر الجوهرى الذى يهم من يملكون ومن لا يملكون . .

ـ المسألة أنك يا هدى لا تؤمنين بى . .

ـ إنى ديمقراطية، وأرى الديمقراطية نظاما لا ينقصه كى يبلغ الكمال إلا الرعاية الإنسانية لجماهير الشعب! وإنه لا يداخلنى شك فى أن المواطن الإنجليزى مثلا يتمتع بحياة أفضل من المواطن الروسى . .

ـ أما أنا فلا أشاركك الإيمان بذلك . .

فقالت بشيء من الاستياء :

ـ حسن ، طالما اتفقنا فى كل شيء ، والآن آن لنا أن نختلف !

وكان سعد كبير يحاول من ناحيته إقناعها بالماركسية .

كان الأصدقاء يتناولون العشاء كثيرا على مائدتنا ، ودعوت محمد شكرون معهم ، ولكنه لم يرتح إلى صحبتهم وتلقى مناقشاتهم بالتثاؤب .

وأظن أنه يجب أن تعرف شيئا أكثر عن سعد كبير ، لقد كان أحد الأصدقاء الذين يجتمعون فى مكتبى للمناقشة ، يمثلون فى مجموعهم جميع المذاهب حتى المذهب الإقطاعى البائد ، ولكنه كان أشدهم حماسا وتفاعلا مع مصيرى ، كان محاميا مبشرا ، راسخا فى مادته ، ذا ثقافة واسعة ، ومقدرة فى الجدل والمحاضرة ، وكان ذا طبيعة حادة متماسكة ، شديد اليقين بما يؤمن لحد التعصب الأعمى ، من الذين يعملون بكل قواهم فى اتجاه واحد ، ولا يتوانى عن تحطيم خصمه بكل الوسائل البلاغية والمناورات الغريبة التى تثير ثائرة من يحترم العقل ويقدسه مثلى .

وقد لمحت فى عينى هدى إعجابا به واستسلاما لجدله الحماسى العنيف .

وذات يوم قال لى محمد شكرون :

ـ أصحابك لا يعجبوننى . .

فقلت له متوددا :

ـ ولكنهم طيبون .

فقال بفتور :

ـ ربما ، لكن المدعو سعد كبير ليس بالطيب .

ـ ولكنه رجل ممتاز بكل معنى الكلمة .

ـ ربما . . لكنه أذكى مما يجب .

فضحكت مؤمنا بقوله ، فعاد يقول :

ـ لا تفتح بيتك لكل من هب ودب .

فآنست من صوته ما يشبه الاحتجاج أو التحذير فاشتعل وجدانى وسألته :

ـ ماذا تعنى يا شكرون؟

فقال متهربا :

ـ المسألة أننى لا أرتاح إليه .

فقلت بحدة شديدة :

ـ أفصح !

ـ إنه من النوع المعتد بنفسه ، ولكنه ليس أهلا للثقة .

ـ إنك تقصد أشياء أكثر من ذلك . .

ـ أبدا وأقسم على ذلك برأس الحسين !

بعد ذلك الحوار لم أرجع إلى طمأنينتى السابقة ، وجعلت أراقب ما يدور حولى بدقة وسوء ظن ، وفى الوقت نفسه أبت علىّ كرامتى أن أغيّر من نظام الأشياء ، ولو بدر منى أمر كهذا لأغضبت بلا شك سيدة أبية مثل هدى ، ولسقطت فى نظرها ، ولكنى جعلت أراقب وأحترق من شدة الانتباه والقلق ، كان ينهمك فى الحديث معها فتنهمك معه ، ووضح لى أن أسلوبه فى الحوار يعجبها ويبعث فيها حيوية دافقة وأنها تبدو فى شوق دائم إلى المزيد منه .

وقلت لها فى أعقاب بسهرة :

ـ لن أدهش إذا اعترفت لى فجأة بأنك شيوعية !

فابتسمت متسائلة :

ـ أغرك إقبالى على حديثه؟

ـ وتأثرك به . .

ـ إنه شخص ممتاز ولذلك فإننى أرثى له!

كانت هدى فى ذلك الوقت فى الخمسين أو جاوزتها بقليل وكان سعد كبير فى الثلاثين ، ولم يكن بقى فى قلبى لها إلا صداقة عميقة ، ورغم ذلك ركبنى الهم ، ورحت أتساءل عما عناه محمد شكرون ، هل رأى أكثر مما رأيت؟ هل كتم عنى أشياء؟ هل تعانى هدى أزمة من أزمات الشيخوخة؟ ولكنها كانت وما زالت مثالا للعقل والرزانة ، ولم أعثر من ناحيته على إشارة واحدة تستحق الريبة ، لا إشارة ولا حركة ولا كلمة ، ورغم ذلك كله اهتز عقلى المقدس ، وسقطت فريسة لانفعالات مبهمة . .

ثم اجتاحتنى المأساة كأنها زلزال غير مسبوقة بأسباب واضحة . .

* * *

وصمت مليا فتساءلت :

ـ المأساة؟ !

فضحك ولم ينبس ، فعدت أتساءل :

ـ المأساة؟ . . ماذا قلت؟

ـ وقعت المأساة وأنا أتأهب لتكوين الحزب .

ـ ثم ماذا؟

ـ وأتهيأ لخوض غمار المعركة متحديا اليسار واليمين معا .

وواصل حديثه متنهدا :

ـ كنا مجتمعين فى مكتبى ـ أنا وسعد كبير ـ منفردين ، وجرى

الحديث، حادا من ناحيته كالعادة وحادا من ناحيتى على غير العادة . .

قال ثائرا :

ـ إنك تتوهم أنك صاحب مذهب ميتافيزيقى اجتماعى سياسى، إن أى مذهب خليق بأن يستغرق عمرا كاملا فى تكوينه، ولكن القارئ يطلع على المذاهب كلها فى عام أو عامين، وقد يتراءى له أن يقوم بعملية انتخاب من المذاهب يظنها تفكيرا وهى ليست إلا عملية انتخاب للتجمع بين متناقضات يستطيعها أى مخلوق، ويمكن بهذه الطريقة أن يكون لدينا مذاهب بعدد غير الأميين فى العالم!

وصحت به على غير توقع منه :

ـ وقح . . قليل الأدب . .

نظر إلىّ بذهول وتمتم :

ـ ماذا؟!

فصحت بإصرار :

ـ وقح . . قليل الأدب! . .

فتساءل بحنق :

ـ أنسيت أنك تخاطب أستاذك؟!

وثبت عليه .

لطمته، لكمنى، اشتبكنا فى صراع مخيف، لم يوجد من يخلّص بيننا، كنت أقوى منه وكان أكثر شبابا، ولما بدأت ألهث تناولت قطاعة الورق . .

* * *

وصمت مليا.

ورحت أتخيل المنظر.

ثم واصل حديثه.

ـ صورة وجهه لا يمكن أن تنسى، أعنى بعد أن غرزت النصل الحاد في عنقه، وجهه وهو ينطفئ هابطا إلى قرارة الظلمة، وهو يتخلى عن المعركة ويستسلم للمجهول، وهو يتخلى عن الجدل والذكاء والمجد وكل شيء.

هتفت:

ـ قتلت يا جعفر؟!

ـ أصبح جعفر الراوى قاتلا.

ـ يا للخسارة!

ـ وقفت أتأمل جثته الملقاة بين المكتب والكنبة الجلدية في ذهول بارد سرمدى وأنا أشعر بأننى تخففت دفعة واحدة من كافة أعباء الحياة وانفعالاتها ثم غصت فجأة إلى أعماق دنيا العلم فرأيت من كوة في جدارها المتهافت شبح المأساة وهو يجرى بعيدا عنى، في كون آخر مضاد لا تربطنى به صلة بشرية، وسمعت صوتا لعله صوتى أو صوت آخر يهتف مذبوحا: «يا عقلى المقدس، لماذ تخليت عنى؟».

ـ يا للخسارة..

ـ من رئاسة حزب إلى التأبيدة!

وبعد صمت قصير سألته:

ـ أكان للقتل ما يبرره؟

ـ من ناحية فللقتل ما يبرره دائما، ومن ناحية أخرى فلا شيء يمكن أن يبرر القتل.

- أعنى هل وجدت فى شكوكك ما يبرر القتل؟

- لا شيء ألبتة، صدقنى. وجاء انهيار زوجتى حزنا علىّ مؤكدا لحماقتى، كأن المأساة قد وقعت لتسخر من عابد العقل ومقدسه، هذا كل ما هنالك. .

- وهل ورد فى المحكمة ذكر لشكوكك؟

- كلا، أبيت ذلك كل الإباء، فصور الموضوع فى المحكمة باعتباره نزاعا بين شيوعيين أدى إلى القتل. . وكنت فى السجن أصر على اعتبارى مجرما سياسيا، ولكنى اعتبرت مجرد قاتل، وحتى اليوم فإنى مصر على أنى مجرم سياسى، ما رأيك؟

- لعلك مجرم نصف سياسى!

- ولكن لولا السياسة لما وقعت الجريمة أصلا. .

- ربما. . ولكن ماذا كان موقف جدك؟

- قبيل الحادث بأيام جاءنى محمد شكرون وأخبرنى أن جدى مريض جدًا، واقترح علىّ أن أزوره مصطحبا زوجى وأبنائى، شاورت هدى فى الأمر فرحبت به جدًا، وأجلت الزيارة ليوم الجمعة، ولكن الجريمة وقعت مساء الخميس، ولم يصلنى من ناحيته رسول أو رسالة ولا عرفت حتى إن كان علم بجريمتى.

المهم أنى طالبت فى السجن باعتبارى مجرما سياسيا رغم أنه لا توجد تفرقة فى المعاملة بين المجرم السياسى والمجرم العادى، واشتهرت بذلك فصرت به دعابة، اعتُبر أحيانا شغبا تعرضت بسببه لعقوبة الجلد، وقد زارتنى هدى مرة واحدة. .

فتساءلت باهتمام:

- هل انقطعت بعد ذلك؟

- انتقلت إلى جوار ربها!

ثم واصل:

- حزنت جداً، وقلقت على الأبناء جداً، ثم أخبرنى شكرون أن عمة والدتهم تكفلت بهم وأنهم سافروا إليها فى المنيا ليبقوا تحت رعايتها ولا شك فى أنهم نسونى سريعا كما نسيت أمى فى مثل سن أكبرهم. وفى زيارة تالية أخبرنى محمد شكرون أنه سيقوم برحلة فنية فى شمالى إفريقيا فانقطعت أخباره عنى حتى اليوم، مات جعفر الراوى ومات العالم الخارجى..

واصلت الجهاد فى السجن داعيا إلى مذهبى الجديد فاصطدمت بجهل وسلبية وسخرية، حتى مأمور السجن دعوته، وكان يعطف علىّ لأصلى ومهنتى وسوء حظى..

وفى السجن ضعف بصرى وأصبت بأمراض شتى. وخرجت وحالى كما ترانى أمامك.

٨

خرجت وحالى كما ترانى أمامك، خرابة من الخرابات..

عجوز مريض نصف أعمى يحمل حفنة من الذكريات لا تصدق.

ولكنى لم أفقد صفاء الذهن ولا قوة الإصرار ولم ينطفئ فى قلبى سحر الآراء.

وقلت لو أعثر على محمد شكرون فقد أجد فيه الخيط الذى يوصلنى إلى قلب الأشياء، ولكنى لم أعثر له على أثر، ولم أصادف أحدا يعرفه وكأنه لم يطرب بصوته جيلا من الناس، وفى معهد الموسيقى الشرقى أخبرنى أحدهم بأنه - محمد شكرون - أقام فى المغرب ثم انقطعت أخباره.

وذهبت إلى قصر الحلمية فوجدت مكانه عمارة شاهقة تملكها شركة تأمين، وكنت قد ورثت عن زوجتى مبلغا محترما من النقود أنفقت أكثره فى السجن في شراء السجائر وخلافه ولم يكد يبقى منه شيء ذو بال.

وذهبت أيضا إلى عشش الترجمان، ولكنى لم أجد لها أثرا، لقد اجتاحها العمران فتحولت إلى حى وبستان ومحطة بنزين.

وعثرت على زملاء غير قليلين، بعضهم على المعاش وبعضهم ما زال يعمل فى المحاماة، وأصارحك بأنه لم يتهرب منى أحد، واستقبلنى بعضهم بحرارة، منهم من لا يزالون على حماسهم الأول لعقائدهم ومنهم من شغلته الحياة ومطالبها.

ولكن أين أبناء مروانة؟ وأين أبناء هدى؟

وقررت أنه لا خير يرجى من الاهتداء إليهم وأننى يجب أن أتركهم دون إزعاج، ويطيب لى أحيانا أن أتخيل حيواتهم وحياة أحفادى منهم، أجل يوجد بينهم الآن قطاع طرق وقضاة ولعلهم أكثر مما أتصور، ولعلى أصادفهم فى تخبطى فلا أعرفهم ولا يعرفوننى..

ولما فرغت من هذه الأمور العاجلة فكرت فى إمكان استئناف الجهاد فى سبيل مذهبى وتكوين الحزب، غير أننى اصطدمت بعقبات ليس من اليسير تذليلها، منها سنى الطاعنة وضعفى الشديد، وسحنتى التى أصبحت تثير الرثاء بل وأحيانا الاشمئزاز.

إن الزعيم كما تعلم يجب أن يحوز شخصية ذات قوة وجاذبية معا، فضلا عن ذلك فإن ميدان السياسة حافل بالشخصيات ذوات الحيوية والتأثير فقلت أسجل نظريتى فى كتاب فإن أعجزنى ذلك ـ ولابد أن يعجزنى ـ فإننى سأدعو إليها حيثما أسير، وقد يتبناها عنى شخص أقدر على نشرها وتحقيقها منى..

عند ذاك بدا لى أنه لم يبق لى إلا الراحة القهرية القصيرة التى تسبق الراحة الأبدية . .

* * *

ولاذ بالصمت مليا، ثم تمتم بهدوء:

ـ طالعنى من الماضى وجه الراوى . .

هممت بالحديث، ولكنه بادرنى قائلا:

ـ لم أكن أشك فى وفاته، ولكن ما مآل ثروته وقصره؟ وقفت تحت سور القصر الشاهق وهو قائم كالجبل، وتسللت إلى العطفة نحو الباب الكبير فأدهشنى أن أجده مواربا . .

وصمت لحظات ثم قال:

ـ دفعت الباب قليلا ودخلت فرأيت منظرا لم أتوقعه، لم أتصوره، لم يجر لى فى خاطر، لا الحديقة هناك ولا السلاملك، لا أخلاط العبير ولا زقزقة العصافير، ولكن خرابة مترامية وأكوام من النفايات ونفر من الصعاليك . .

فهتفت مستغربا:

ـ كيف؟! . . هل هدم؟!

ـ لا شىء إلا الخراب يحيط به جدار شاهق وباب عظيم، ونظر إلىّ الصعاليك بحذر وارتياب، فضربت الأرض بقدمى، ورحت أبحث عن أحد حى من مريدى جدى، وفى أثناء بحثى وتجوالى علمت أن الراوى تُوفى بعد سجنى بعام واحد، وبأنه أوقف ثروته كلها على الخيرات دون أن يخصص لى مليما واحدا ولا لأحد من ذريتى، أما القصر فقد ألقيت عليه قنبلة فى إحدى الغارات الجوية ثم أزيلت أنقاضه، هذه هى القصة كلها من أولها لآخرها، وأدركت فى الحال أننى لن أظفر براحة فى الراحة القهرية القصيرة

التى تسبق الراحة الأبدية، ولكننى قررت أن أجعل بيتى فى الخرابة المتخلفة عن قصر جدى، وإنى أنام فيها عادة ما بين الفجر والضحى كصعلوك من الصعاليك.

وضحك ضحكة قصيرة ثم سكت وهو ينفخ، فقلت برثاء:

ـ شيخوخة غير سعيدة.

فهتفت بكبرياء:

ـ كلا. إنى أرفض الرثاء والعطف، تذكر دائما أنك تخاطب عظيما من الرجال، ومن أسباب عظمته السحرية أنه قادر على التكيف مع أقسى الظروف والأحوال فيخوضها بكل تعال وابتسام!

وآمنت بقوله، ولكننى قلت:

ـ على أى حال فإن الإعانة الشهرية التى...

فقاطعنى بحدة:

ـ لقد اتخذت فيها قرارا!

ـ لم أظنك جادا فيما قررت..

ـ ولكنى جاد كل الجد!

ـ أتعنى أنك لن تكتب الالتماس؟

ـ قطعا!

ـ ولكنه الجنون عينه..

ـ سمه كما تشاء، لقد حرمنى الراوى من تركته، وإنى أرفض أن أتسول منها مليما واحدا!

ـ ولكنك يا جعفر عجوز وضعيف وفقير وسرعان ما تنفد النقود المتبقية لديك..

ـ أعرف هذا حرفا حرفا، ولكنى أعند من الراوى نفسه..

ـ دعنى أكتب الالتماس بنفسى .

ـ إنى أرفض .

ـ ولكن . . .

ـ إنى أرفض الكلام حول هذا الموضوع . . .

وساد الصمت ، وكان التعب قد نال منه محدِّثا كما نال منى مستمعا . .

وتثاءبت ، فضحك قائلا :

ـ إنى لا أتثاءب قبل الفجر .

فتمتمت بفتور :

ـ عفارم .

ـ إنى صعلوك متجول ، أغادر خرابة الراوى لأهيم على وجهى فى الطرقات ، من مرجوش إلى الخرنفش إلى النحاسين إلى خان جعفر ، فى كل مكان لى ذكرى ونجوى ، وفى الحلمية ذكريات ، وفى ميدان باب الخلق يخفق قلبى ، وفى كل مكان أدعوه دعوة صريحة إلى مذهبى ، أدعو البشرية إلى إنقاذ نفسها .

ـ مذهبك؟

ـ أجل . .

ـ علانية؟!

ـ أجل . .

ـ يجب أن تحذر المتاعب .

ـ إنى لا أخشى المتاعب . .

وقلت لنفسى : إن هيئته لا توحى بأى جدية فلا خوف عليه .

واستنمنا إلى الصمت مرهقين .

وفى لحظة من التخدير والأسى انطلق صوت المؤذن يعانق أمواج الظلام .

وتمطى جعفر قائلا بصوته الرنان الخشن :

ـ آن لنا أن نذهب . .

سرنا جنبا إلى جنب ، اخترقنا القبو إلى الميدان .

وهمس جعفر :

ـ لتمتلىء الحياة بالجنون المقدس حتى النفس الأخير .

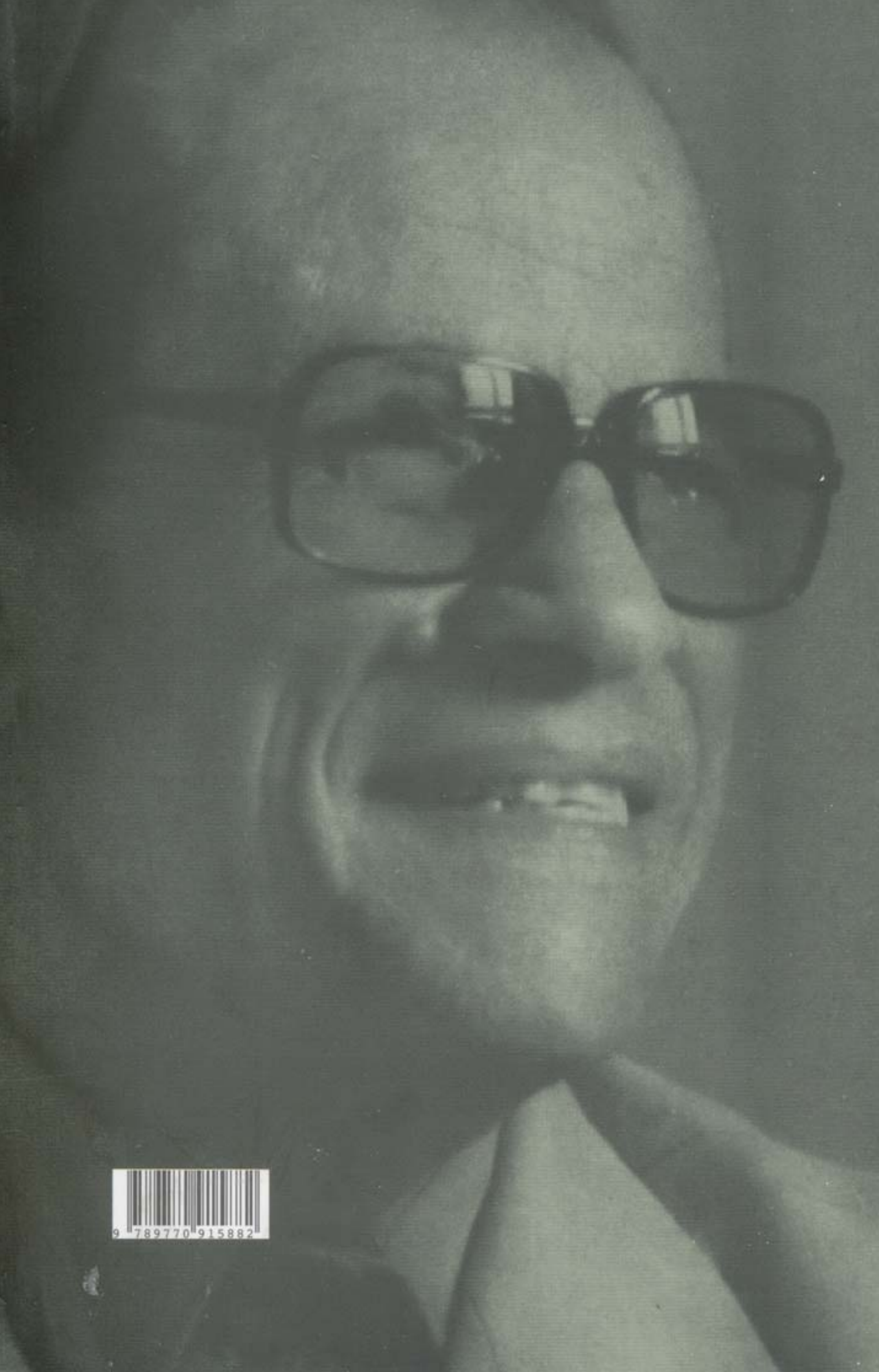
وكان رأسى يطن بحديث الليل الطويل .

أعمال نجيب محفوظ

١ -	مصر القديمة	ترجمــة	١٩٣٢
٢ -	همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ -	عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ -	رادوبيــس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ -	كفاح طيبــة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ -	القاهرة الجديدة	روايـــة	١٩٤٥
٧ -	خان الخليلى	روايـــة	١٩٤٦
٨ -	زقاق المدق	روايـــة	١٩٤٧
٩ -	الســـراب	روايـــة	١٩٤٨
١٠ -	بداية ونهاية	روايـــة	١٩٤٩
١١ -	بين القصرين	روايـــة	١٩٥٦
١٢ -	قصر الشوق	روايـــة	١٩٥٧
١٣ -	الســـكرية	روايـــة	١٩٥٧
١٤ -	اللص والكلاب	روايـــة	١٩٦١
١٥ -	السمان والخريف	روايـــة	١٩٦٢
١٦ -	دنيـا اللــه	مجموعة قضصية	١٩٦٢
١٧ -	الطـــريق	روايـــة	١٩٦٤

١٨ ـ	بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ	الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ ـ	ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ ـ	ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ ـ	أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ ـ	خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ	تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ	حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ	شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ	المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ	الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ	الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ	الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ	حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ	قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ	حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ	الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ	الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ	الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ	عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ	أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ	ليالي ألف ليلة	رواية	١٩٨٢

٤٠ ـ	رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ	الباقى من الزمن ساعة	روايـــة	١٩٨٢
٤٢ ـ	أمام العرش (حوار بين الحكام)	روايـــة	١٩٨٣
٤٣ ـ	رحلة ابن فطومة	روايـــة	١٩٨٣
٤٤ ـ	التنظيـم الســرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ	العائش فى الحقيقة	روايـــة	١٩٨٥
٤٦ ـ	يوم قتل الزعيم	روايـــة	١٩٨٥
٤٧ ـ	حديث الصباح والمساء	روايـــة	١٩٨٧
٤٨ ـ	صبــاح الــورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ	قشــــتمر	روايـــة	١٩٨٨
٥٠ ـ	الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ	أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ	القــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ	صــدى النسـيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ	فتــوة العطــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ	أحــلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤


9 789770 915882